الفصل الثاني والسبعون

الحـج والعمرة

والحج الذهاب الى الأماكن المقدسة في أزمنة موقوتة ، للتقرب الى الآلهة،والى صاحب ذلك الموضع المقدس . وتقابل هذه الكلمة Pilgrinage في الانكليزية[1] . والحج بهذا المعنى معروف في جميع الأديان تقريباً، وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الساميين .

وكلمة (حجّ) من الكلمات السامية الأصيلة العتيقـة ، وقد وردت في كتابات مختلف الشعوب المنسوبة الى بني سام[2] . كما وردت في مواضع من أسفار التوراة[3] . وهي تعني قصد مكان مقدس وزيارته .

وفي روع الشعوب السامية القديمة وغيرها أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها ، قيل لها في الأزمنة القديمة (بيوت الآلهة) . ولذلك يرى المتعبدون والمتقون شدّ الرحال اليها ، للتبرك بها وللتقرب اليها ، وذلك في أوقات تحـدد وتثبت ، وفي أيام تعين تكون أياماً حرمـاً لكونها أياماً دينية ينصرف فيها الانسان إلى آلهته ، ولذلك تعدّ أعياداً ، يعمد فيها الناس ، بعد اقامتهم الشعائر الدينيـة المفروضة

---

١ تفسير الطبري (٢/٤٤) ، (البابي) ، اللسان (٢/٢٢٦) ، الاقناع (١/٣٣٤)، الكشاف ، للزمخشري (١/٣٨٩ وما بعدها) ،
Ency. Brita., Vol., 17, p. 925, Ency. Religi., Vol., 10, p. 10.

٢ تاج العروس (٢/١٦ وما بعدها) ، اللسان (٣/٤٨ وما بعدها) ،
Ency. Religi., 10, p. 23.

٣ Shorter Ency. of Islam, p. 123.

وبعد أدائهم القواعد المرسومة ، الى الفرح والسرور والرقص ، ليدخلوا السرور الى قلوب الأرباب . ففي الحج إذن مناسك وشعائر دينية وعبادة تؤدى ، واجتماع وسرور وحبور .

ويكون الحج بأدعية وبمخاطبة الى الآلهة وبتوسلات لتتقبل حج ذلك الشخص الذي قصدها تقرباً اليهـا . وهذا هو الشائع والمعروف عن الحج ، غير أن من الجاهليين من كان يحج حجاً مصمتاً ، أي دون كلام ، فلا يتكلم الحاج طيلة أيام حجه . وقد كان ذلك من عمل الجاهلية[1] .

وقد ميّز الشهر الذي يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته بـ (شهر ذي الحجة) وبـ (شهر الحج) . وذلك لوقوع الحج فيه . وهذه التسمية المعروفة حتى الآن في التقويم الهجري ، هي تسمية قديمة ، كانت معروفة في الجاهلية ، وردت في نصوص الجاهلية . فبين أسماء الأشهر الواردة في نصوص المسند اسم شهر يعرف بـ (ذ حجتن) أي (ذي الحجة) ، ويدل ذلك على أنه الشهر الذي يحج فيه . وقد وردت كلمة (حج) في نصوص المسند كذلك[2] .

وقد ذكر (أفيفانيوس) Epiphanius ان من أسماء الأشهر عند العرب شهراً اسمه Aggathalbaeith (حج البيت)[3] ، أراد به شهر (ذي الحجة) . والعرب الذين قصدهم هذا الكاتب هم عرب (الكورة العربية) ، ومعنى هذا ان العرب الشماليين كان لهم شهر يسمى بـ (ذي الحجة) كذلك[4] .

ولفظة Aggathalbaeith ، هي لفظة عربية النجار حرفت على لسان (أفيفانيوس) وقومه ، لتناسب منطقهم ، فصارت على هذا النحو ، وهي من كلمتين عربيتين في الأصل ، هما (حجة البيت) ، أو (حج البيت) . ويكون نص (أفيفانوس) هذا من النصوص المهمة بالنسبة لنا ، التي تساعدنا في الرجوع بتأريخ استعمال هذا المصطلح الى ايامه ، ولا بد وان يكون ذلك المصطلح قد استعمل قبل أيام ذلك الكاتب ولا شك .

ويقع شهر الحج (ذي الحجة) — على رواية (افيفانيوس) — في (تشرين

---

١ ارشاد الساري (٦/١٧٥) .
٢ D. Nielsen, Mondreligion, S. 86, Glaser 1054, Wiener Mus., No. 7.
٣ Shorter Ency. of Islam, p. 124.
٤ Reste, S. 85, Ency. Religi., 10, p. 10.

الثاني)[1] ، وأشار (بروكوبيوس) الى ان العـــرب كانوا قد جعلوا شهرين من السنة حرماً لآلهتهم لا يغزون فيها ولا يهاجم بعضهم بعضاً[2] ، كما أشار (فوتيوس) الى الأشهر الحرم عند العرب[3] . والشهران اللذان أشار اليهما (بروكوبيوس) ، هما شهرا ذو القعدة وذو الحجة في نظر (ونكلر) ، وهما يمثلان – في رأيه – (جولاي) و (أغسطس) أي تموز وآب[4] .

إننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نقول إن شهر (ذ حجتن) المذكور في المسند ، أو Aggathalbaeith الذي ذكره (افيفانيوس) ، هو شهر (ذو الحجة) الشهر المعروف الذي كان من شهور أهل مكة . فمن الجائز أن يكون حج العرب الشماليين أو حج العرب الجنوبيين في وقت آخر يختلف عن وقت حج أهل مكة، فيكون شهرهم المذكور شهر آخر يقع في موسم آخر من السنة ، ولا ينطبق مع شهر (ذي الحجة) .

ويرى (ونكلر) أن ما ذكره (فوتيوس) من احتفال العرب مرتـــين في السنة بالحج الى معبدهم المقدس : مرة في وسط الربيع عند اقتران الشمس ببرج الثور ، وذلك لمدة شهر واحد ، ومرة أخرى في الصيف وذلك لمـــدة شهرين ، إنما يراد بذلك شهر رمضان لاقتران الشمس فيه ببرج الثور . وأما الشهران الآخران فهما ذو القعدة وذو الحجة[5] .

ويظهر من غربلـــة ما أورده أهـــل الأخبار من روايات عن موسم الحج في الجاهلية ، أن الحج الى مكة كان في موسم ثابت ، هو الربيع على رأي كثـــير من المستشرقين ، أو الخريف على رأي (ولهوزن)[6] . وذلك بسبب مـــا ذكر عن النسيء ومن رغبة قريش وغيرها من أن يكون في وقت واحد ، كما تحدثت عن ذلك في باب النسيء . وقـــد ذهب (ولهوزن) الى أن (الشهر الحرام) المذكور في القرآن الكريم ، هو (شهر الحج) ، وهو الشهر الأول من السنة،

---

١ Reste, S. 100, Epiphanius, Haer., 51, 24.

٢ Procopius, II, 16.

٣ Reste, 101.

٤ Winekler, ALF. II, Reihe, Ibd., S. 336.

٥ Winckler, ALF., II, Reihe, Ibd., S. 336.

٦ Shorter, p. 124.

أي شهر محرم ، بينما يرى المفسرون أنه رجب ، أو ذو القعدة أو ذو الحجة[1] . والأصح أنه أي شهر من الأشهر الحرم .

وقد ورد في القرآن الكريم : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج »[2] . وقد قال (الطبري) : « اختلف أهل التأويل في قوله : الحج أشهر معلومات . فقال بعضهم : يعني بالأشهر المعلومات : شوالاً وذو القعدة ، وعشراً من ذي الحجة »، « جعلهن الله سبحانه للحج ، وسائر الشهور للعمرة ، فلا يصلح ان يحرم أحد بالحج إلا في أشهر الحج . والعمرة يحرم بها في كل شهر »[3] ، وذكر ان الله لم يسمّ أشهر الحج في كتابه ، لأنها كانت معلومة عندهم[4] ، وان المراد بذلك انه لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج ، فإن من سنّة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج[5] . وبناءً على ذلك ، فلا يكون المراد من الآية ان الحج يقع في كل وقت من أوقات هذه الأشهر . وانما هو في وقت معين ، ولكن الإحرام للحج ، أي العزم عليه يكون في أي وقت من هذه الأشهر المذكورة ، وليس في الأشهر الأخرى . وذكر (المسعودي) ان أشهر الحج : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة[6] .

ومعنى ما تقدم ان الجاهليين كانوا يتهيأون للحج من دخول شهر شوال ، فيصلحون أمورهم ، ويحضرون ما يحتاجون اليه من لوازم السفر، فإذا أراد أحدهم تجارة وكسباً ذهب الى الأسواق ، حتى يهل شهر ذو الحجة ، وإن لم يرد تجارة، ذهب في أي وقت يراه مناسباً له . فبدء موسم الحج اذن والتهيؤ له يكون من شهر شوال .

ويظهر من شعر نسب الى (عوف بن الأحوص) أنه سمى شهر (ذي الحجة) (شهر بني أميّة) . إذ يقول :

وإني والذي حجت قريش محارمه ومـا جمعت حراء
وشهر بني أميّة والهدايـا إذا حبست مضرجها الدماء[7]

---

١ Shorter, p. 409.
٢ البقرة ، الآية ١٩٧ .
٣ تفسير الطبرى (٢/١٠٥) .
٤ القرطبى ، الجامع (٢/٤٠٥) .
٥ تفسير الطبرسى (الجزء الثـاني) (ص ٢٩٢ وما بعدها) ، تفسير ابن كثـير (١/٢٣٥) .
٦ مروج (٢/١٨٩) ، الكشاف (١/٢٥٤) .
٧ شرح ديوان لبيد (٢١) .

وقد ذهب (ولهوزن) وجماعة آخرون من المستشرقين الى تعدد بيوت الأرباب التي كان يحج اليها الجاهليون في شهر (ذي الحجة) والى عدم حصر الحج عند الجاهليين بموضع واحد[1]. ومعنى هذا أن حج أهل الجاهلية لم يكن الى (مكة) وحدها، بل كان الى محجات عديدة أخرى. بحيث حج كل قوم الى (البيت) الذي قدسوه وكانوا يتقربون اليه ووضعوا أصنامهم فيه. ويتفق هذا الرأي مع ما يراه أهل الأخبار من وجود بيوت للأصنام، وكان الناس يزورونها ويتقربون اليها ويذبحون عند أصنامها ويطوفون حولها ويلبّون تلبية الصنم الذي يطوفون حوله.

والحج الى مكة والى البيوت المقدسة الأخرى، مثل بيت اللات في الطائف وبيت العزى على مقربة من عرفات وبيت مناة وبيت ذي الخلصة وبيت نجران وبقية البيوت الجاهلية المعظمة، إنما هو أعياد يجتمع الناس فيها للاحتفال معاً بتلك الأيام وهم بذلك يدخلون السرور على أنفسهم وعلى أنفس آلهتهم بحسب اعتقادهم وتقترن هذه الاحتفالات بذبح الحيوانات، كل يذبح على قدر طاقته ومكانته، فيأكل منها في ذلك اليوم من لم يتمكن من الحصول على اللحم في أثناء السنة لفقره، فهي أيام يجد فيها الفقراء لذة ومتعة وعبادة.

ويذكر أهل الأخبار أن الحج الى مكة كان في الجاهلية كذلك، وأن الجاهليين كانوا يحجون الى البيت منذ يوم تأسيسه، وأنهم كانوا يقصدون مكة أفواجاً من كل مكان. وأن ملوكهم كانوا يتقربون الى (بيت الله) بالهدايا والنذور، وأن منهم من حج اليه. وأن الناس كانوا يقسمون بالبيت الحرام لما له من مكانة في نفوس جميع الجاهليين.

غير اننا نجد في روايات بعض أهل الأخبار ما ينافي تعظيم كل العرب للبيت وحجهم اليه واحترامهم للحرم وللأشهر الحرم. فقد ورد ان من العرب من (كان لا يرعى للحرم ولا للأشهر الحرام حرمة)، ومنهم (خثعم) و (طيء)[2]، وأحياء من قضاعة ويشكر والحارث بن كعب[3]. وورد ان ذؤبان العرب وصعاليكها

---

١ Reste, S. 84.

٢ تاج العروس (٨/٢٤١)، (حرم).

٣ الجاحظ. الحيوان (٧/٢١٦ وما بعدها)، النجيرمي، أيمان العرب (١٢)، المحبر (٣١٩).

وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، ولا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدراً . وقد كانوا خطراً يهدد البيت وأهله لذلك، ألف (هاشم) بين قريش وسادات القبائل ألفة ليحمي بهم البيت . قال (الجاحظ) في تفسيره للإيلاف : « وقد فسره قوم بغير ذلك . قالوا : إن هاشماً جعل على رؤوس القبائل ضرائب يؤدونها اليه ليحمي بها أهل مكة . فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب التطاول ، كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً ، مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب »[1] . ورؤوس القبائل الذين جعل هاشم عليهم ضرائب يؤدونها اليه ليحمي بها أهل مكة ، هم رؤساء مكة ولا شك ، ومن كانت له مصلحة تجارية مباشرة بمكة ، فكان يأخذ من هؤلاء ما يأخذه ثم يجمعه ويعطيه الى (المؤلفة قلوبهم) من سادات القبائل النازلين حول مكة وعلى مقربة منها ، كما ألف بين مكة وبين سادات القبائل الذين تمر قوافل مكة بأرضهم في طريقها الى الشأم أو العراق أو اليمن ، بروابط (الإيلاف) ، أي العقود التي عقدها معهم ، باعطائهم جعلاً معيناً ، أو حقوقاً تبين وتكتب ، أو ربحاً يدفع مع رؤوس المال عن البضائع التي تدفع لقريش ، لتقوم قوافلها ببيعها في الأسواق. وبذلك أمنت مكة وسلمت تجارتها ، ودانت بعض القبائل بدين قريش في الأشهر الحرم ، لما فيها من فائدة ومنفعة مادية بينة ظاهرة ، فاحترمتها، وبهذا أمن الحج واستراح التجار من قريش ومن غيرهم في ذهابهم بحرية وبأمان في هذه الشهور الى الأسواق .

وليست لدينا ويا للأسف أخبار مدوّنة عن مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين. لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص الواردة الينا . ما خلا الحج الى (بيت الله الحرام) بمكة ، حيث حفظت الموارد الإسلامية لنا شيئاً من ذلك ، بسبب فرض الحج في الاسلام ، واقرار الاسلام لبعض شعائره التي لم تتعارض مع مبادئه ولولا ذلك لما عرفنا شيئاً عن الحج الى مكة عند الجاهليين . ولهذا فسأقتصر في كلامي هنا على الحج الى مكة فقط . إلا إذا وجدت خبراً أو نصاً عن حج غير

---

١ رسائل الجاحظ (٧٠) ، Klster, p .119, 143. ، طبقات الشعراء ، لابن سلام (٦١) ، الثعالبي ، المضاف والمنسوب (٨٩) ، النقائض (٢/٦٧١) ، ابن هشام (١/٦٠٣) ، الأزمنة والامكنة ، للمرزوقي (٢/١٦٦) ، الاغاني (٢١/٤٢) .

أهل مكة من الجاهليين الى مكة أو الى بيوت أخرى فسأتكلم عنه حينئذ .

ويظهر من غربلة ما جاء في روايات أهل الأخبار عن (حج البيت) ، أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج ، بل كانت تختلف باختلاف القبائل. فقد انفردت (قريش) بأمور من أمور الحج ، واعتبرتها من مناسك حجها ، وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها (قريش) موجبة لها ، ولم تعمل بها ووقفت قريش في مواقف ، اعتبرتها مواقف خاصة بها . وأوجبت على من يفد الى مكة للحج ، مناسك معينة سنتحدث عنها . فلما ظهر الاسلام وحدد مناسك الحج وثبتها . وأوجب على كل مسلم اتباعها .

ويبدأ الحج في الاسلام بلبس (الاحرام) حين بلوغه (الميقات) المخصص للجهة التي جاء منها . و (ميقات) الحج موضع احرامهم[1] . وقد عين الرسول أكثر (المواقيت) وثبتها ، فجعل (ذا الحليفة) ميقاتاً لأهل (يثرب) ، و (الجحفة) ميقاتاً لأهل الشأم ، و (يلملم) ميقاتاً لأهل اليمن ، و (قرن المنازل) لأهل نجد ومن يأتي من الشرق نحو الحجاز . وأما (ذات عرق) ، فميقات أهل العراق ، قيل ان الرسول ثبته ، وقيل إنه ثبت بعد فتح العراق . أما أهل مكة ، فكانوا يحرمون من بيوتهم[2] . ويجوز أن تكون هذه المواقيت من مواقيت أهل الجاهلية كذلك ، وقد ثبتها الاسلام .

ويستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم (سوق عكاظ) . فإذا انتهت ايام السوق ، وأراد منهم من أراد الحج ، ذهب الى (مجنة) ، فأقام بها الى هلال ذي الحجة ، ثم ارتحل عنها الى (ذي المجاز) ، ومنه الى (عرفة) ، فإذا كان يوم التروية ، تزودوا بالماء وارتفعوا الى عرفة. هذا بالنسبة الى التجار، الذين كانوا يأتون هذه المواضع للتجارة . أما بالنسبة الى غيرهم ، فقد كانوا يقصدون الحج في أي وقت شاءوا ، ثم يذهبون الى (عرفة) للوقوف موقف عرفة ، يقصدها (الحلة) ، أما (الحمس) فيقفون بـ (نمرة) ، ثم يلتقون جميعاً بمزدلفة للإفاضة[3] .

---

١ تاج العروس (١/٥٩٤) ، (وقت) .
٢ شرح النووي على صحيح مسلم (٥/١٩٠ وما بعدها) ، (حاشية على ارشاد الساري) ، ارشاد الساري (٣/٩٧ وما بعدها) .
٣ الازرقي ، أخبار مكة (١/١٢١ وما بعدها) .

ويبدأ حج أهل الجاهلية بالإهلال . فكانوا يهلّون عند أصنامهم ، ويلبون اليها ، فإذا انتهوا من ذلك قدموا مكة ، فكان الأنصار مثلاً يهلون لمناة في معبده ، أي انهم كانوا يغادرون (يثرب) الى معبد الصنم ، فيكونون فيه لمراقبة هلال ذي الحجة ، فإذا أهلّوا لبّوا ، ثم يسير من يسير منهم الى مكة ، لحج البيت[1] .

والطواف بالبيوت وبالأصنام ، ركن من أركان الحج ، ومنسك من مناسكه . وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام ، فإذا دخل أحدهم الحرم ، واذا سافر أو عاد من سفر ، فأول ما كان يفعله الطواف بالبيت . وقد فعل غيرهم فعل قريش ببيوت أصنامهم ، إذ كانوا يطوفون حولها ، كالذي كان يفعله أهل يثرب من طوافهم بـ (مناة)[2] .

وقد ذكر الأخباريون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون حول الرجمات ، وهي حجارة تجمع فتكون على شبه بيت مرتفع كالمنارة ، ويقال لها الرجمة[3] . وكان الجاهليون يطوفون حول الأصنام والأنصاب كذلك . وذكر (نيلوس) Nilus أن الأعراب كانوا يطوفون حول الذبيحة التي يقدمونها قرباناً للآلهة[4] . وكانوا يطوفون حول القبور أيضاً : قبور السادات والأشراف من الناس .

وطافوا حول (الأنصاب) ، ويسمون طوافهم بها (الدوار) . فكانوا يطوفون حول حجر ينصبونه طوافهم بالبيت ، وسمّوا تلك الأحجار الأنصاب[5] .

وللطواف كلمة أخرى هي (الدوار) من (دار) حول موضع من المواضع ، وطاف حوله الشيء ، واذا عاد الى الموضع الذي ابتدأ منه . ونجد هذا المعنى في شعر الشاعرين الجاهليين : امرىء القيس ، وعنترة بن شدّاد العَبْسي[6] . وقد ذكر علماء اللغة أن (الدوار) صنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله يدورون به ، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار . ومنه قول امرىء القيس :

فَعَنَّ لنا سِربٌ كأن نِعاجه عذارى دوار ، في مُلاءٍ مذيل[7]

---

١ صحيح مسلم (٤/٦٨ وما بعدها) .
٢ شرح صحيح مسلم ، للنووي (٨/٢١ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٣/٤٢٢ وما بعدها) ، « عمر » اللسان (٦/٢٨٣) .
٤ Reste, S. 108.
٥ الاصنام (٣٣ ، ٤٢) .
٦ اللسان (٤/٢٩٦ وما بعدها) . Shorter Ency. of Islam, p. 585.
٧ اللسان (٤/٢٩٧ وما بعدها) .

وقيل إنهم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالكعبة. وقيل حجارة كانوا يطوفون حولها تشبهاً بالكعبة[1].

وتلعب عبادة الحجر دوراً بارزاً في (الدوار) . فقد كان قوم من أهل الجاهلية يقيمون الأحجار ، ثم يطوفون حولها ، يتخذون الدوار عبادة لهم . وقد تكون الأحجار أصناماً ، وقد تكون حجارة تنتقى فيطاف حولها . و « عن أبي رجاء العطاردي ، قال : لما بعث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب ، فلحقنا بالنار ، وكنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه ، ألقينا ذلك وأخذناه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به . وكنا اذا دخل رجب قلنا جاء منصل الأسنة ، فلا ندع سهماً فيه حديدة ، ولا حديدة في رمح إلا نزعناها وألقيناها »[2] .

ويلاحظ ان الجاهليين كانوا يقيمون وزناً للحليب في أمور العبادة ، فقد كانوا يسكبونه على الأصنام ، كما رأينا في باب الأصنام، وفي القصة المتقدمة . ويلاحظ ان الرواية قد خصصت حليب الغنم ، ولم تشر الى حليب الإبل ، أو حليب أية ماشية أخرى، مما قد يدل على وجود رابطة بين هذا الحليب وبين (الدوار) وان له علاقة بالأساطير ، وذلك في حالة صدق الخبر بالطبع .

والطواف من أهم طرق التعبد والتقرب الى الآلهة . يؤدونه كما يؤدون الشعائر الدينية المهمة مثل الصلاة ، وليس له وقت معلوم . ولا يختص ذلك بمعبد معين ولا بموسم خاص مثل موسم الحج ، بل يؤدونه كلما دخلوا معبداً فيه صنم ، أو كعبة أو ضريح ، فهم يطوفون سبعة أشواط حول الأضرحة أيضاً : كما يطوفون حول الذبائح المقدمة الى الآلهة . فالطواف ، إذن من الشعائر الدينية التي كان لها شأن بارز عند الجاهليين .

وكانوا يطوفون بالبيت في نعالهم ، لا يطأون أرض المسجد تعظيماً له[3] . إلا أن يكون الحاج فقيراً حافياً ، فقد كان منهم من لا يملك نعالاً ولا خفاً ولا

---

١ تاج العروس (٣/٢١٦) ، (دار) .
٢ زاد المعاد (٣/٣٢) ، (فصل في قدوم وفد بني حنيفة) ، ارشاد الساري (٦/٤٣٥) ، (باب وفد بني حنيفة) .
٣ اليعقوبي (١/٢٢٦) ، (أديان العرب) .

سائر ما يلبس بالرجل لفقره . وذكر أن رسول الله قال : « من لم يجد نعلين، فليلبس خفين »[1] . وقد ذكر (السكري) ، أن (الحمس) كانوا « لا يطوفون بالبيت إلا في حـذائهم وثيابهم ، ولا يمسون المسد بأقدامهم تعظيماً لبقعته »[2] . وذكر أن (الحلـة) كانوا على العكس منهم . « فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ، ثم استكروا من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم »[3] .

وكانوا يدخلون جوف الكعبة بنعالهم،لا يتأثمون من ذلك . وذكر أن (الوليد ابن المغيرة » كان أول من خلع نعليه لدخول الكعبة ، تعظيماً لها ، فخلع الناس نعالهم[4] .

وعدّة الطواف حول الكعبة عند الجاهليين سبعة أشواط ، ولا أستبعد ان يكون هذا العدد ثابتاً بالنسبة الى الطواف حول البيوت الأخرى أوحول الرجمات والأنصاب والقبور أيضاً . فقد كان الطواف سبعة أشواط مقرراً عنـد غير العرب أيضاً ، وقد ذكر في (التوراة) ، اذ كان العبرانيون يمارسونه[5] . والعدد سبعة هو من الأعداد المقدسة المهمة عند الشعوب القديمة . ولهذا أرى ان غير قريش من العرب كانوا يطوفون هذا الطواف أيضاً حول محجّاتهم في ذاك الوقت .

وقد ورد أن من الجاهليين من كان يطوف ويده مربوطة بيـد انسان آخر ، بحبل أو بسير ، أو بزمـام أو منديل ، أو خيط أو أي شيء آخر ، يفعلونه نذراً،أو حتى لا يفترقا . وقد نهى عن ذلك في الإسلام . فقد روي أن الرسول رأى أحدهما وقد فعل ذلك ، فقطع بيده ذلك الرباط[6] .

---

١ صحيح مسلم (٢/٤ وما بعدها) ، (كتاب الحج) ، ارشاد الساري (٣١٣/٣ وما بعدها) ، (باب لبس الخفين للمحرم اذا لم يجد النعلين) .

٢ المحبر (١٨٠) .

٣ المحبر (١٨٠ وما بعدها) .

٤ ابن رستة ، الاعلاق (١٩١) .

٥ Shorter Ency. of Islam, p. 585.

٦ صحيح البخاري (١٧٩/٢) ، ارشاد الساري (١٧٣/٣ وما بعدها) ، (باب الكلام في الطواف) .

الحمس والطلس والحلة :

والأخباريون يذكرون ان الطائفين بالبيت كانوا على صنفين : صنف يطوف عرياناً ، وصنف يطوف في ثيابه . ويعرف من يطوف بالبيت عرياناً بـ (الحِلة). أما الذين يطوف بثيابهم ، فيعرفون بـ (الحمس)[1] . وأضاف بعض أهل الأخبار الى هذين الصنفين ، صنفاً ثالثاً قالوا له : (الطلس)[2] .

وقبائل الحلة من العرب : تميم بن مرّ كلّها غير يربوع ، ومازن ، وضبة، وحميس ، وظاعنة ، والغوث بن مر،وقيس عيلان بأسرها ما خلا ثقيفاً وعدوان ، وعامر بن صعصعة ، وربيعة بن نزار كلها. وقضاعة كلها ما خلا علافاً وجناباً . والأنصار وخثعم ، وبجيلة ، وبكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهذيل بن مدركة ، وأسد وطيء ، وبارق . وقد ذكر هذه الأسماء (محمد بن حبيب)[3] . وذكرها (اليعقوبي) على هذا النحو : تميم وضبة ومزينة والرباب وعكل وثور وقيس عيلان كلها ما خلا عدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها ، وقضاعة وحضرموت وعك وقبائل من الأزد[4] .

وهم يذكرون ان (الحِلة) هم ما عدا الحمس وانهم كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا ثياب أحمس،وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها[5] . ويذكرون انهم كانوا يقولون: « لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب » ، « ولا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها » ، « ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها» ، وذكر انهم « كانوا اذا طافوا خلعوا ثيابهم وقالوا لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فيلقونها عنهم ، ويسمون ذلك الثوب اللقي »[6] . وفي رواية ان من يطوف

---

١ تفسير الطبري (٢/١٧٠) ، البخاري ، (كتاب الحج ، الباب ٩١) ، (كتاب التفسير، الباب ٣٥) ، البلدان (٤/٦٢٠ وما بعدها) ، الازرقي (١/١١٣) ، اليعقوبي (١/٢٢٦) ، (النجف ١٩٦٤ م) ، المحبر (١٧٨) ، ابن هشام (١/٢١٢) ، الكشاف (١/٢٥٦) ، شرح حماسة أبي تمام ، للتبريزي (١/٧)، شرح المفضليات ، للانباري (٢٥٩) ، ابن رشيق ، العمدة (٢/١٨٨) ، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان (١٨) .

٢ المحبر (١٧٨ وما بعدها) .

٣ المحبر (١٧٩) .

٤ اليعقوبي (١/٢٢٦) ، (النجف ١٩٦٤ م) .

٥ الروض الانف (١/١٣٣) .

٦ الازرقي (١/١١٧) ، اللسان (٢٠/١٢٢) ، الكشاف (٢/٦٠) .

من (الحلة) بثيابه يضرب وتنتزع منه ثيابه[1] . فجعلت هذه الرواية خلع الثياب واجب على الحلة محتم عليهم ، لا يجوز مخالفته ، وإلا تعرض المخالف للعقاب .

وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضاً اذا كنّ من الحلة ، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة[2] . وقيل تضع احداهن ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه[3] . وقيل كانت تقف على باب المسجد ، فتقول : من يعير مصوناً؟ من يعير ثوباً ؟ من يعيرني تطوافاً ؟ فإن أعارها أحد ثوباً أو كراه لها طافت به ، وإلا طافت عريانة كما يطوف الرجال على حد زعم الروايات . لا يستر عورتها لباس أو قماش ، بل كانت تضع احدى يديها على قبلها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو . وهم يروون في ذلك بيتاً ينسبونه لامرأة جميلة ، قيل هي : ضباعة بنت عامر بن صعصعة ، طافت بالبيت عريانة وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله[4]

وشاءت بعض الروايات أن تخفف من وقع طواف النساء على هذه الصورة في النفوس ، فذكرت ان بعض النساء كانت تتخذ سيوراً فتعلقها في حقوتها تستتر بها[5] ، وذكرت روايات أخرى انهن كن يطفن ليلاً ، وبذلك يتخلصن من وقوع سترهن في أعين الرجال ، لأن طواف الرجال في النهار[6] .

وقد وصفت بعض الروايات طواف العريان فقالت : « يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعاً ، استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس ، فيأخذها فيلبسها ولا يعود الى الطواف بعد ذلك

---

١ الكشاف (٢/٦٠) ، الازرقي (١/١١٢ وما بعدها) .
٢ صحيح مسلم (١٨/١٦٢) .
٣ سيرة ابن هشام (١/١٣٣) « حاشية على الروض » .
٤ الازرقي (١/١١٥ ، ١١٧) ، اللسان (١١/١٢٩) ، « طوف » الروض (١/١٣٣)، صحيح مسلم (١٨/١٦٢) ، تفسير الطبري (٨/١١٨) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٧/١٨٩) .
٥ الازرقي (١/١١٧) .
٦ الازرقي (١/١١٧) ، الطبرسي (٣/٤١٤) .

عرياناً »[1] . هذا هو طواف أهل الجاهلية قبل الاسلام على رواية أهل الأخبار .

وجاء في بعض الروايات : « كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عراة،إلا ان تعطيهم الحمس ثياباً ، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء » ، « فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً ولا يسارٌ يستأجر به ، كان بين أحد أمرين : إما ان يطوف بالبيت عرياناً ، وإما ان يطوف في ثيابه ، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه ، فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يسمى اللقى »[2] . وجاء أيضاً ان (الحمس) كانوا « يقولون نحن أهل الحرم ، فلا ينبغي لأحد من العرب ان يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل اذا دخل أرضنا إلا من طعامنا »[3] .

وورد انهم « كانوا يطوفون بالبيت عراة،وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون »[4] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان طواف الطائف عرياناً انما يكون للمرة الأولى ، فإذا عاد فطاف بعد ذلك ، لبس ملابسه ، وطاف بملابسه كالحمس لا يلقيها خارج حدود الحرم .

والتفسير الذي ذكره الأخباريون لطواف العري ، هو رغبة الطائف حول البيت ان يكون نقياً متحرراً عن ذنوبه وآثامه بعيداً عن الأدران . واعتقاده ان طوافه بملابسه طواف غير صحيح ، لأن ملابسه شاركته في آثامه ، فهي ملوثة نجسة ، ولذلك هاب من لبسها ، فإذا أتم طوافه تركها في موضعها،ولبس ملابس أخرى جديدة[5] .

ويذكر الأخباريون ان تلك الملابس التي يلقيها المحرم تبقى في مكانها،لا يمسها أحد ، ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح . ويقال لهذه الثياب التي تطرح بعد الطواف (اللقي) . وقد أشير اليها في شعر

---

١ الازرقي (١/١١٤) .
٢ تفسير القرطبي (٧/١٨٩) .
٣ المصدر نفسه .
٤ تفسير النيسابوري (٩/١٥٧) ، « حاشية على تفسير الطبري » ، تفسير الطبري (٩/١٥٧ وما بعدها) .
٥ الازرقي (١/١١٧) ، اللسان (٢٠/١٢٢) ، الكشاف (٢/٦٠) .

لـ (ورقة بن نوفل)[1] . ولعل اعتقاد القوم بأن تلك الملابس ملوثة بالأدران ، هو الذي منع الناس الآخرين من لمس تلك الملابس والاستفادة منها، فتركوها لذلك للأرض وللشمس والرياح تعبث بها الى ان تتمزق وتهرى[2] .

ولكننا نجد الأخباريين يعودون فيروون روايات تناقض ما ذكروه عن (اللقي). إذ يقولون : كان الحلة اذا ختموا طوافهم وأتموه بنائلة ، خرجوا الى ثيابهم التي ألقوها خارج باب المسجد ، فلبسوها ، فإذا أرادوا الطواف مـــرة أخرى طافوا بملابسهم[3] . فهم يقرون في هذه الرواية طواف العري ، ولكنهـــم ينكرون ترك (اللقى) على الأرض لتدوس عليها الأقدام ولتلعب بها الرياح وتعبث بها الأهوية والأتربة ، ويجعلون أصحابها يعودون اليها فيلبسونها تارة أخرى .

ونقرأ في كتبهم رواية أخرى تذكر ان أحداً من الحلة اذا لم يجد ثياب أحمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها ، غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقى يطرحها بين أساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها منتفع حتى تبلى من وطء الأقدام والشمس والرياح والأمطار[4] .

وقد ذكر (محمد بن حبيب) ان (الحلة) كانوا اذا دخلوا مكة « تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم استكروا لهم من ثياب الحمس تنزيهـــاً للكعبة ان يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد . ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء يباشرونها بأقدامهم . فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة . وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس يأخذ ثيابه . فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً . وانمـــا كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم الى البيت لأنهم كانوا اذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم إلا اللحـــم . وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حرمي عياض بن حمار المجاشعي : كان اذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله »[5] .

---

١ كفـى حـــزنا كرّي عليـه ، كأنـــه لقى بـــين أيـــدي الطائفـــين حريم
الازرقي (١/١١٢ ، ١١٤) ، اللسان (٢٠/١٢٢) ، النهاية في غريب الحديث (٤/٢٩) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٧/١٨٩) .

٢ Robertson Smith, p. 751.

٣ الازرقي (١/١١٤) .

٤ الازرقي (١/١١٤) .

٥ المحبر (ص ١٨٠ وما بعدها) .

فالذي يطوف بالبيت عرياناً ، هو ضعيف (الحلة) ، ممن لا قبل له على استكراء ثياب له من أحمسي ، وممن لا صاحب له من الحمس ، يعطيه ثياباً ليلبسها . أما المتمكن من (الحلة) ، ومن له صديق من الحمس ، فلا يطوف عرياناً ، وانما يطوف بثياب أحمسي .

ويرى (روبرتسن سمث) ان الذي أوحى الى الجاهليين وجوب طرح ملابس الحلة اذا أحرم فيها،اعتقادهم بتقدس تلك الملابس في أثناء الإحرام مما يجعلها في حكم الـ (تابو) Tabu عند الأقوام البدائية ، ولذلك لا يجوز استعمالها مرة أخرى، وهم أنفسهم قوم غير مقدسين[1] .

وقد منع الاسلام طواف (العريّ) في أي وقت كان ، وحتم على الجميع قريش وغيرهم لبس (الإحرام)[2] . وقد ذكر علماء التفسير في تفسير قوله تعالى : « واذا فعلوا فاحشة ، قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها . قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون »[3] . ان هذه الآية نزلت في حق المتعرين الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة ، « فإذا قيل لهم : لِمَ تفعلون ذلك ؟ قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » ، « فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون ، ونقتدي بهديهم ونستن بسنتهم . والله أمرنا به فنحن نتبع أمره فيه »[4] . فنحن اذن أمام سنّة جاهلية قديمة ، ترجع طواف العري الى أمر سابق وشريعة سابقة .

وأما (الحمس) ، فهم الذين كانوا يطوفون بثيابهم ، ثم يحتفظون بها فلا يلقونها ، فلهم من هذه الناحية ميزة امتازوا بها على الحلة . ولهم على الحلة ميزة أخرى ، هي انهم كانوا يقفون الموقف في طرف الحرم من (غرة) : يقفون به عشية عرفة ، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة ، ويفيضون منه الى المزدلفة[5] . ولا يقفون موقف غيرهم بعرفة ، فقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل . وحجتهم انهم أهل الحرم فلا يخرجون منه مثل سائر

---

١ R. Smith, p. 751.

٢ الازرقي ، أخبار مكة (١/١١١) .

٣ الاعراف ، الرقم ٢٧ الآية ٢٨ .

٤ تفسير الطبري (٨/١١٤) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٧/١٨٧) .

٥ الازرقي (١/١١٦ وما بعدها) (٢/١٥٨ وما بعدها ، النهاية (١/٢٣٣) ، شرح النووي، (٨/١٨٠) وما بعدها) ، Ency., II, p. 335.

الناس . ويقولون : « نحن أهل الحرمة وولاة البيت وقطّان مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف »[1].

وتفسير كلمة (الحمس) في رأي علماء اللغة التشدد في الدين ، سُمّوا حمساً لأنهم كانوا يتشددون في دينهم ، فكانوا اذا زوّجوا امرأة منهم لغريب عنهم ، أي لمن كان من الحلة اشترطوا عليه ان كل من ولدت له ، فهو أحمسي على دينهم . وكانوا اذا أحرموا لا يأتقطون الاقط ، ولا يأكلون السمن ولا يسلؤونه ولا يمخضون اللبن ، ولا يأكلون الزبد، ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً ، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه ، وانما يستظلون بالأدم ، ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم . وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم . وكانوا اذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الاسلام ، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه . وكانوا يقولون : لا تعظموا شيئاً من الحل ، ولا تجاوزوا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم ، ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم ، فقصروا عن مناسك الحج . والموقف من عرفة وهو من الحل ، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه ، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة : يقفون به عشية عرفة ، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة ، ويفيضون منه الى المزدلفة . فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا . وكانوا يقولون : نحن أهل الحرم ، لا نخرج من الحرم، ونحن الحمس . وكانوا اذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم ، تسوّروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ، ثم ينزلون في حجرتهم ، ويحرمون ان يمروا تحت عتبة الباب[2] . فهم يحرمون اذن أشياء لم تكن العرب تحرمها[3] .

---

١ ابن هشام (١/١٣٢) « هامش على الروض » .

٢ الازرقي (١/١١٦ وما بعدها) ، النهاية (١/٢٣٣ ، ٢٩٣) ، الاشتقاق (١٥٣) ، ابن هشام (١/٢١١) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٣٩١) ، الطبرسي (٢/٤١١) .
Caetani, Annali, I, S. 121, Ency., II, p. 335, Snouck Hurgounje, Het Mekkaanische Feest, p. 21, 77, 111, 130.

٣ المعاني (٢/٩٩٨) .

والحمس : قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس على رواية[1] . تضاف اليهم خزاعة والأوس والخزرج وجشم وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة وأزد شنوءة وجذم زبيد وبنو ذكوان من بني سُليم وعمرو اللات وثقيف وغطفان والغوث وعدوان وعلاف وقضاعة على رواية للأزرقي[2] . وهم : (قريش) وكنانة وجديلة قيس ، وفهم ، وعدوان ، وثقيف ، وعامر بن صعصعة على رواية أخرى[3] . وقد ذكر (ابن سعد) ، ان الحمس هم : قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب . أو حليف قريش . وذكر بعض الرواة انهم قريش وعامر بن صعصعة ، والحارث بن كعب[4] . وذكرهم بعض آخر على هذا النحو : قريش ، وكنانة ، وخزاعة ، وثقيف ، وخثعم ، وعامر بن صعصعة ، ونصر بن معاوية . وأضاف (القرطبي) جشماً اليهم[5] . وورد ان « الحمس لقب قريش ومن ولدت قريش ، وكنانة وجديلة قيس . وهم : فهم وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان ، وبنو عامر بن صعصعة ، ومن تابعهم في الجاهلية . هؤلاء الحمس . وانما سمّوا لتحمسهم في دينهم أي تشددهم فيه ، وكذا في الشجاعة فلا يطاقون ، أو لالتجائهم بالحمساء وهي الكعبة »[6] .

وأورد (ابن حبيب) أسماء الحمس من العرب ، فقال : « قبائل الحمس من العرب : قريش كلها . وخزاعة لنزولها مكة ، ومجاورتها قريشاً . وكل من ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب .

فمن ولدت قريش : كلاب ، وكعب ، وعامر ، وكلب بنو ربيعة بن عامر ابن صعصعة . وأمهم مجد بنت تيم بن غالب بن فهر . واياها عنى لبيد بن ربيعة بقوله :

سقى قومي بني مجد وأسقى نميراً والقبائل من هلال

---

١ النهاية في غريب الحديث (١/٢٩٣) ، تاج العروس (٤/١٣٢ وما بعدها) ، (حمس) ، اللسان (٧/٢٥٧ وما بعدها) ، (حمس) ، ، ارشاد الساري (٣/٢٠٠)، البلخي ، البدء والتاريخ (٤/٣٢ وما بعدها) .

٢ البلدان ، (مكة) ، Kister, p. 138.

٣ الطبقات (١/٧٢) ، (صادر) .

٤ ابن هشام (١/٢١٢) ، ابن قتيبة ، المعارف (٢٦٩) ، المعاني (٩٨٩) ، المرزوقي ، شرح الحماسة (٣١) ، Kister, p. 132.

٥ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢/٣٤٥) ، أبو حيان ، البحر المحيط (٢/٦٣) ، Kister, p. 132.

٦ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

والحارث بن عبد مناة بن كنانة . ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة ، بنزولهم حول مكة . وعامر بن عبد مناة بن كنانة . ومالك ، وملكان ، ابنا كنانة ، وثقيف ، وعدوان ، ويربوع بن حنظلة . ومازن بن مالك بن عمرو بن تميم . وأمهما جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر . ويقال : ان بني عامر كلهم حمس لتحمس اخوتهم من بني ربيعة بن عامر . وعلاف ، وهو ربّان بن حُلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة . وجناب بن هبل بن عبدالله من كلب . وأمه آمنة بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة . وأمها مجد بنت تيم الأدرم بن غالب ابن فهر »[1] .

ويتبين مما تقدم ان (الحمس) ، لم يكونوا قريشاً وحدهم وسكان الحرم ، وانهم لم يكونوا جماعة قامت وظهرت على رابطة الدم والنسب ، كما هو الحال بالنسبة الى القبيلة . بل هم قريش وكل من نزل الحرم وسكن مكة ، وطوائف من العرب شاركت قريشاً في مناسك حجها ، وسارت على نهجها في الحج ، وشاطرتها الرأي في دينها . وقد ذكر (الجاحظ) ان (عامر بن صعصعة) ، و (خزاعة) ، و (ثقيفاً) ، والحارث بن كعب ، كانوا ديّانين ، أي على رأي ودين[2] . وكانوا على دين قريش . وقال غيره : « وصارت بنو عامر من الحمس وليسوا من ساكني الحرم لأن أمهم قرشية . وهي مجد بنت تيم بن مرة . وخزاعة انما سميت خزاعة ، لأنهم كانوا من سكان الحرم فخزعوا عنه ، أي خرجوا . ويقال انهم من قريش انتقلوا ببنيهم الى اليمن . وهم من الحمس »[3].

وقد ميّز بعض العلماء بين (الحمس) وهم نزلاء الحرم ، وبين المتحمسين الذين دخلوا في الحمس ، لأن أمهاتهم من قريش ، بأن أطلقوا عليهم لفظة (الأحامس) . فقالوا : « والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش »[4] .

وجاء في بعض الأخبار ان (غطفان) ، لما اتخذت لها بيتاً أرادت به مضاهاة الكعبة ، وجعلت له حرماً كحرم مكة . أغار (زهير بن جناب الكلبي) عليه

---

١ المحبر (١٧٨ وما بعدها) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٥٤٠) ، ابن عبد البر ، انباه (٨٧) ، المفضليات ، شرح الانباري (٢٥٩) .

٢ Kister, p. 136.

٣ تاج العروس (١٣٢/٤) ، (حمس) .

٤ تاج العروس (١٣٣/٤) ، (حمس) .

وهدمه[1] . وكان زهير من الحمس .

وقد وصف (ابن سعد) (التحمس) بقوله : « والتحمس أشياء أحدثوها في دينهم تحمسوا فيها ، أي شددوا على أنفسهم فيها ، فكانوا لا يخرجون من الحرم اذا حجّوا ، فقصروا عن بلوغ الحق ، والذي شرع الله ، تبارك وتعالى، لابراهيم وهو موقف عرفة ، وهو من الحل ، وكانوا لا يسلؤون السمن ولا ينسجون مظال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم ، وشرعوا لمن قدم من الحاج ان يطوف بالبيت وعليه ثيابه ما لم يذهبوا الى عرفة ، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلا عراة أو في ثوبي أحمسيّ ، وان طاف في ثوبيه لم يحلّ له ان يلبسها »[2] .

وللجاحظ ملاحظات قيمة عن قريش لها صلة بالتحمس ، وقد تفسر لنا معنى التحمس وسبب شموله أناساً هم من غير قريش .

ذكر ان الاسلام لما ظهر ، لم تكن هنالك أية امرأة قرشية ، كانت مسبية عند غير قريش . ولم تكن هنالك أية امرأة مسبية في أيدي القبائل وأمها من قريش . ويذكر أيضاً ان قريشاً لم تكن تزوج بناتها من أبناء أشراف القبائل حتى تشترط عليهم ان من تلد منهن ، فيكون من يلدن من الحمس . أما هم ، فكانوا اذا تزوجوا من بنات قبائل أخرى ، فإنهم لم يشترطوا على أنفسهم أي شرط، وكان من هذه القبائل عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة والحارث بن كعب ، (وكانوا ديّانين) . وكانوا على دين قريش في أمورها . وكانت قريش كريمة ، ولم ترض بالغارات والغزو ولا بالظلم ولم تقبل بالوأد ولا بالدخول بمن يقع في أيديهم أسرى من النساء . وكان من فضائلهم ان منّ الله عليهم بالإيلاف . فأغناهم وجعلهم (لقاحاً) ، فلم يخضعوا لملك ، ولم يستعبدهم سلطان أجنبي[3] . ولم يدفعوا أي شيء عنهم لملك من الملوك . بل كانت الملوك تأتي الى مكة وتعظم البيت وتحترم سكانه . وهم قريش الحمس[4] .

---

١ الاغاني (١٢/١٢١) ، (٢١/٦٣) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٧٢) ، (صادر) .

٣ أخذت هذه الملاحظات من (كستر) (Kister) ، لعدم وجود مخطوطة الجاحظ التي نقل منها عندي . وهي : مختارات فصول الجاحظ ، الموجودة في المتحف البريطاني برقم ٣١٨٣ .

٤ ابن الفقيه ، كتاب البلدان (١٨) .

ويظهر من ملاحظات الجاحظ المذكورة ، ان من أهم مبادىء الحمس ، نبذ الغارات ، أي الغزو ، حتى جعلته قريش ركناً من أركان دينها . كما تمسكت بركن آخر ، هو عدم الدخول بمن يقـــع في أيديهم من النساء السبايا في حالة ما اذا أغارت قبيلة عليهم ، واعتدت عليهم ، فانتصرت قريش عليها ، وأخذت منها سبايا . أما الحمس الآخرون ، مثل عامر بن صعصعة وثقيف والحارث بن كعب ، وأمثالهم ممن تحمسوا ، فلم يتمسكوا بهذه الأصول . وذكر (ابن الفقيه) ان القبائل المذكورة لم تكن في الأصل حمساً ، على دين قريش ، وانما تحمست وصارت من الحمس بتأثير قريش عليها[1] . وقريش تمسكوا وحدهم بالحمس ، (وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء)[2] . وقد عرفت مكة بـ (دار الحمس) ، كما جاء ذلك في شعر ينسب الى (الكاهـــن اللهبي)[3] . وعرفت قريش بـ (أهل الله)[4] .

ونجد بين (الحمس) والحرم صلة متينة ، تشير الى الأصل الديني للحمس والى ارتباطهم بالكعبة . فذهب (الزمخشري) الى ان (حمس) من (حرم)[5] : ومن دلائل هذه الصلة أيضاً ما ورد في كتب أهل الأخبار من ان الكعبة كانت قد عرفت بـ (الحمساء) . سميت بذلك (لأن حجرها أبيض الى السواد)[6] . ومن ان (الحمس) هم نزلاء الحرم[7] . فبين الحمس والحرم ، صلة متينة اذن . حتى قيل ان المنسوب الى الحرم من الناس (حرمـــي)[8] . و (ان عياض بن حمار المجاشعي ، كان حرمي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكان اذا حج طاف في ثيابه . وكان أشراف العرب الذين يتحمسون على دينهم ، أي يتشددون اذا حج أحدهم لم يأكل إلا طعام رجل من الحـــرم : ولم يطف إلا في ثيابه .

---

١ Klster, p. 137.

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٨) ، (أهل الله) . Klster, p. 137.

٣ الروض الانف (١/١١٨) ، ابن دريد ، الاشتقاق (٤٩١) ، Wellhausen, Reste, S. 134, Klster, 138.

٤ Klster, p. 139.

٥ الزمخشري ، الفائق ، (حمس) ، Klster, p. 138.

٦ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

٧ تاج العروس (٤/١٣٢) ، (حمس) .

٨ بالكسر .

فكان لكل رجل من أشرافهم رجل من قريش . فيكون كل واحد منهما حِرمي صاحبه »[1] . ويفسر لنا هذا المعنى أيضاً قولهم : « رجل حرام : داخل في الحرم » ، و « الحرم بالكسر الرجل المحرم . يقال : أنت حل وانت حرم»[2]. وقد أنجب الزواج المشروط بين قريش وبين من يتزوج منها حمساً جدداً ، انتقل الحمس اليهم عن طريق (شرط عقد الزواج) من جهة الأمهات . أما نسل هؤلاء الحمس الجدد ، الذين هم في الواقع أنصاف أحماس ، فقد صار حمساً مثل قريش ، لأنهم ولدوا من والد حسب من الحمس ومن والدة أحمسية . وبذلك لم يعد الحمس أهل مكة وحدهم ، بل شمل أهل مكة ومن تزوج مكيات فأنجبن ولداً ، عدّوا حمساً بشرط العقد .

وتذكر بعض الروايات ان عقيدة (الحمس) لم تكن قديمة ، بل ظهرت قبيل الاسلام . « قال ابن اسحاق : كانت قريش لا أدري قبل الفيل أو بعده ، ابتدعت أمر الحمس رأياً . فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها،وهم يعرفون ويقرون انها من المشاعر والحج ، إلا انهم قالوا : نحن أهل الحرم ، ونحن الحمس . والحمس أهل الحرم . قالوا : ولا ينبغي للحمس ان يتأقطوا الأقط ولا يسلؤوا السمن ، وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرماً ، ثم قالوا : لا ينبغي لأهل الحل ان يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عمّاراً ، ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس »[3] . ولم تذكر هذه الرواية سبب ظهورها ، ولا من أوجدها من رجال قريش .

ويتبين من غربلة ما ذكره أهل الأخبار عن الحمس ؛ ان الحمس هم أهل مكة الأحرار في الأصل ؛ ثم من دان بدينهم . وجدوا أنفسهم في ضنك شديد، في واد غير ذي زرع ، لا شيء عندهم غير (البيت) ، فتحمسوا في دينهم وتشددوا وتعاونوا فيما بينهم على العمل معاً ، وعلى الدعوة الى عبادة رب البيت واقراء الضيف والامتناع عن غزو غيرهم ، وعن التحرش بأحد ، إلا اذا تحرش بهم ، وعلى إغاثة الملهوف ومساعدة من يأت البيت حاجاً أو معتمراً أو قاصداً

---

١ تاج العروس (٨/٢٤٣) ، (حرم) .
٢ تاج العروس (٨/٢٤٣) ، (حرم) .
٣ ارشاد الساري (٣/٢٠٠) .

تجارة ، وتقديم الرفادة له . ونصرة الغريب . وحافظوا على الحرمات : حرمة البيت وحرمة الحج وحرمة الأشهر الحرم ، ووضعوا لأنفسهم قواعد صارمة في آداب السلوك في موسم الحج وفي غيره ، تشعر انهم كانوا ينظرون الى أنفسهم كأنهم (جنس) ، فضله الله على بقية أجناس العرب ، لهم مناسكهم ، ولبقية العرب مناسكهم ، ولهم قباب خاصة يضربونها لأنفسهم في سوق عكاظ وفي المواضع الأخرى تميزهم عن سائر من يفد الى هذه المواضع،وترفّعوا عن مصاهرة سائر الناس إلا اذا وجدوا انهم أكفاء لهم ، والكفاءة : القوة والمال . وأقاموا مجتمعهم الخاص هذا على قواعد دينية تعاونية اقتصادية (صاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء)[1] . شعارهم انهم (أهل الله)[2] ، دينهم « التحمس والتشدد في الدين، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال ، فلما زهدوا في الغصوب لم يبق مكسبة سوى التجارة : فضربوا في البلاد الى قيصر بالروم ، والنجاشي بالحبشة ، والمقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء »[3]. وكان ان تفردوا بالإيلاف، وللايلاف ارتباط بالحمس ، وتوجهوا الى التجارة والاتجار ، وجمعوا بين الدين والمال ، وأفسحوا المجال لمن به نشاط وهمة ان يجمع مالاً وأن يكون غنياً على ان يساهم بنصيبه في تحمّل أعباء مجتمعهم ، للدفاع عن (بيت الله) ولكسب المتحالفين معهم وتوزيع العدل فيما بينهم ، توزيعاً يخفف من حدة التفاوت فيما بين الغني والفقير ، حتى لا يقع اختلال في التوازن بين طبقات المجتمع ، يحمل الفقراء على انتزاع المال من الأغنياء كرهاً وقسراً . وجعلوا ذلك واجباً من واجباتهم ، فحثوا على رفع الظلم ، واتخذوا السقاية والرفادة ، وعقدوا (حلف الفضول) للدفاع عن المحتاج ، وجعلوا (الإيلاف) الذي سأتكلم عنه في الجزء الخاص بالحياة الاقتصادية ، سبباً من أسباب اشاعة الرحمة ومساعدة الفقراء وتخفيف وطأة الفقر في هذه القرية : (أم القرى) ، وفي ذلك يقول (مطرود بن كعب الخزاعي) في رثائه عبد المطلب :

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨) ، (أهل الله) ، (ص١١) ، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ٠

٢ ثمار (ص ١٠) ٠

٣ ثمار (ص ١١ وما بعدها) ، سيرة ابن دحلان (١/١٤٠) ، (حاشية على السيرة الحلبية) ٠

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلت عليهم ضمنوك من جوع ومن إقراف
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف
والمطعمون اذا الرياح تناوحت ورجال مكة مسنتون عجاف
والمفضلون اذا المحول تَرادَفت والقائلون هلُم للأضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي
كانت قريش بيضة فتفلقت فالمحّ خالصة لعبد مناف[1]

قام رجال من رجال مكة بالانفاق على المحتاجين، فعدّوا ذلك ديناً ومروءة وشهامة. فكان (نعيم بن عبدالله) العدوي ، ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم[2] . وكان (حكيم بن حزام) ينفق من أرباحه على المحتاجين من آله وذويه[3] . وكان صديق النبي قبل المبعث[4]، وتذكر كتب السير والتراجم أسماء رجال آخرين عرفوا بتصدقهم على الفقراء والمحتاجين ، اعتبروها منقبة وقربة لهم في الجاهلية ، وقد أقرهم الرسول عليها .

فالحمس (أهل الله) ، وأمته ، تجمعهم عبادة الله والأصنام ، والمناسك والشعائر التي وضعوها لهم ، والتجارة التي جعلوها مثل شعائر دينهم ، ينفقون من أرباحهم منها في سبيل (الله) . أي بيت الله وأهله المستضعفون ، حتى جعلوا الصدقة وإطعام المحتاج من أمور الدين. فمجتمعهم مجتمع جمع بين الدين والتجارة، وبين الدين والمال . حثهم على التعاون بخلط رؤوس أموالهم والاتجار معاً بقوافل ، وفيه ربح كبير مضمون ، وحثهم على إنصاف من ليس له شيء حتى يصير

---

١ أخذت هذه الابيات من أمالي المرتضى (٢/٢٦٨) ، وتختلف بعض الاختلاف عن أمالي القالي (١/٢٤١ وما بعدها) ، التي فيها :
منهم علي والنبي محمد القائلان هلم للاضياف
وعن سيرة ابن هشام (١/١١٧) ، (حاشية على الروض الانف) ، وعن معجم الشعراء (٣٧٥) ، وشرح ابن أبي الحديد (٣/٤٥٣) ، والعيني (٤/١٤٠) ، والبكري ، سمط (٥٤٧ وما بعدها) ، وعن تفسير الطبرسي (ج ٣٠ ص ٥٤٥) ، (طبعة طهران) ، تفسير سورة لايلاف قريش ، وعن ابن العربي ، محاضرات الابرار (٢/١١٩) ، والبلاذري ، أنساب (١/٥٨) ، والدياربكري ، تأريخ الخميس (١/١٥٦) .
٢ الاصابة (٣/٥٢٧) ، (رقم ٨٧٧٨) .
٣ نسب قريش (١/٣٦٧) ، (رقم ٦٤٤) ، Kister, p. 125.
٤ الاصابة (١/٣٤٨ وما بعدها) ، (رقم ١٨٠٠) .

مكتفياً غير محتاج ، لا يوجه عينه نحو غيره حسداً وحقداً . شعار هـذا المجتمع الله والأصنام والحج والتجارة ، مجتمع لم يكن يخلو بالطبع من أحامس بخـلاء ، شذوا عن الطريق ، واغتصبوا أموال الفقراء ، كما هو الحال في كل مجتمع بشري .

وقد اقتصرت (قريش) ، وهم من الحمس ، على استعمال القباب المصنوعة من الأدم لا يضربها غيرها بـ (منى)[1] . لأنهم (كانوا لا ينسجون مظال الشعر ، وكانوا أهل القباب الحمر من الأدم)[2] . وقد استعمل الرسول في حجه هذا النوع من القباب[3] . ولا بد أن يكون لاقتصار قريش على استعمال هذا النوع من القباب دون غيرها في هذا الموضع ، سبب ما ، الأرجح انه عامـل ديني واجتماعي[4] . ويلاحظ انه كان للقباب الحمر ذكر خطير ، وجاه عظيم في نظر الجاهليين ، فكان أصحابها يفتخرون على غيرهم بأنهم (أهل القباب الحمر)[5] ، وقد كان الملوك والسادة يضربون لأنفسهم القباب الحمـر . فهي من امارات الجاه والمكانة والنفوذ .

ويظهر من بعض الأسماء أو الجمل التي وردت فيها كلمة (أحمس) و (حمس) ان هذه الكلمة هي نعت أو اسم من أسماء الآلهة عند الجاهليين في الأصل ، ثم تغير معناها بعد ذلك فصارت على النحو الذي ذكره علماء اللغة نقلاً عن الروايات التي ترجع ذلك المعنى الى الجاهلية المتصلة بالاسلام . ففي الأسماء الواردة الينا : (أحمس الله) ، و (بنو أحمس) ، و (أبو أحمس) ، و (الأحامس)[6] ؛ ما يفيد ان الأصل بعيد جداً عن المعنى الذي فهمه وذهب اليه أهـل الأخبار ، وان للكلمة معنى دينياً خاصاً قديماً ، هو التشدد في الدين والتمسك به ، وبعبادة الصنم ، والمحافظة على سنّة الآباء والأجداد مع تصلب وتقشف .

---

١ (كانت قباب قريش من الأدم ، لا يضربها غيرهم بمنى) ، المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني ـ آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (١/٤١) .

٣ ابن سعد ، الطبقات (٢/٨٨) ، أسد الغابة (١/٢٥١) .

٤ المشرق ، السنة السابعة والتلاتون ، كانون الثاني ـ آذار ، ١٩٣٩ (ص ٩٥) .

٥ أهـل القبـاب الحمـر والنعـم المـؤبل والمدامه
ديوان عبيد الابرص (٢٩) ، (طبعة لايل) .

٦ الاغاني (٢/٤٦) ، الاشتقاق (١٥٣) ، تاج العروس (٤/١٣٢ وما بعدها)، (حمس) .

والأحماس من العرب الذين أمهاتهم من قريش[1] ، صاروا من الحمس بسبب أمهاتهم .

هذا وقد نزل الوحي بتنظيم الحج وفق مبـــادىء الاسلام ، فأباح للحجاج ما كانت الحمس حرمته على نفسها من طعام الحـج إلا طعام أحمسي ، عـــلى نحو ما ذكرت قبل قليل . وما ذكر من ان قوماً كانوا قـد حرّموا على أنفسهم ما يخرج من الشاة لبنها وسمنها ولحمها ، اذا حجوا أو اعتمروا[2] . كما نزل بوجوب ستر العورة ولبس الإحرام في الحج ، وذلك بالنسبة الى المحلّين ، وأغلبهم من الأعراب ومن الفقراء ، حيث كانوا يطوفون عراة ، وفي ضمنهم النساء[3] . فنزل الوحي بـ : « يا بني آدم خذوا زينتـــكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »[4] . ونهوا عن ذلك[5] . وذكر عن أبـي هريرة انه قال : « بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر ، لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان »[6] .

كما نزل الوحي بجواز دخول الحجـــاج بيوتهم وخيامهم ومـــا يأوون اليه من بيوتها ، من أبوابها ، لا كما كان يفعل بعضهم في الجاهلية وفي أول الاسلام ، من انه اذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه ، فإن كان من أهل المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلماً فيصعد فيه ، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل من الباب حتى يحل من احرامه ويرون ذلك ذماً ، إلا ان يكون من الحمس . وهم : قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صعصعة ، وبنو النضر بن معاوية . نزل الوحي بذلك في الآية : «وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون»[7] .

---

١ تاج العروس (٤/١٣٣) ، (حمس) .
٢ تفسير الطبري (٨/١٢١) .
٣ تفسير الطبري (٨/١١٨) .
٤ الاعراف ، الآية ٣١ .
٥ تفسير الطبري (٨/١١٨ وما بعدها) ، أسباب النزول (١٦٨ وما بعدها) .
٦ صحيح مسلم (٤/١٠٧) ، (باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وبيان الحج الاكبر) .
٧ البقرة ، الآية ١٨٩ .

وقد ذهب بعض أهل الأخبار والسير الى ان الآية المذكورة ، نزلت في أمر الحمس ، « لأن الحمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء عتبة باب ولا غيرها ، فان احتاج أحدهم الى حاجة في داره تسنم البيت من ظهره ، ولم يدخل من الباب »[1] . وذهب المفسرون الى انها نزلت في الأنصار ، فقد كانوا اذا حجّوا فجاءوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم ، ولكن من ظهورها ، فجاء رجل فدخل من قبل بابه ، فكأنه عير بذلك ، فنزلت هذه الآية . وورد: « كانت قريش تدعى الحمس ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الاحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام ، فبينما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في بستان ، إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري ، فقالوا : يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وانه خرج معك من الباب ! فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : فإنّ ديني دينك ! فأنزل الله : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها »[2] . وقد أغفلت بعض الروايات اسم من كان لا يدخل البيوت من أبوابها ، بأن قالت : « كان أهل الجاهلية يأتون البيوت من ظهورها ويرونه براً » ، أو « كانوا في الجاهلية اذا أحرموا أتوا البيوت من ظهورها ، ولم يأتوا من أبوابها » ، أو « إن ناساً كانوا اذا أحرموا لم يدخلوا حائطاً من بابه ولا داراً من بابها أو بيتاً » ، أو « كان ناس من أهل الحجاز ، اذا أحرموا لم يدخلوا من أبواب بيوتهم ودخلوها من ظهورها »[3] ، وذكر ان من كان يفعل ذلك ، فانما يفعله ، لأنهم كانوا يتحرجون من ان يكون بينهم وبين السماء حائل[4] .

وقد جعل (اليعقوبي) العرب في الجاهلية على دينين : دين الحمس ودين الحلة . وذلك بالنسبة للمشركين . وذكر ان منهم من دخل في دين اليهودية وفي النصرانية ، ومنهم من تزندق وقال بالثنوية ، وبهذه الفرق حصر (اليعقوبي) أديان أهل الجاهلية . إذ قال : « فهاتان الشريعتان اللتان كانت العرب عليهما . ثم دخل قوم من العرب في دين اليهود ، وفارقوا هذا الدين . ودخل آخرون

---

١ الروض الانف (١/١٣٤ وما بعدها) .
٢ أسباب النزول (ص ٣٥ وما بعدها) .
٣ تفسير الطبري (٢/١٠٨ وما بعدها) .
٤ المصدر نفسه .

في النصرانية ، وتزندق منهم قوم ، فقالوا بالثنوية »[1] .

والتعميم الذي يطلقه (اليعقوبي) وبقية المؤرخين والأخباريين في قولهم « وكانت العرب في أديانهم » ، لا يمكن التسليم به ، إلا بالنسبة لأهل مكة ولمن كان يقصدهم من العرب . أما بالنسبة لجميع العرب ، فهذا ما لا يمكن التسليم به .

وأما (الطلس) ، فقد وصفهم (محمد بن حبيب) بقوله انهم : « بين الحلة والحمس : يصنعون في احرامهم ما يصنع الحلة ، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس . وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ، ولا يستعيرون ثياباً ، ويدخلون البيوت من أبوابها ، وكانوا لا يئدون بناتهم ، وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون »[2] . وهم سائر أهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك وعجيب ، وإياد بن نزار[3] .

وذكر ان من الحجاج من كان يحج بغير زاد ، وان منهم من كان اذا أحرم رمى بما معه من الزاد ، واستأنف غيره من الأزودة ، وان « قبائل من العرب يحرمون الزاد اذا خرجوا حجاجاً وعمّاراً » ، فنزل الوحي : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى »[4] ، فأمر من لم يكن يتزود منهم بالتزود لسفره ، ومن كان منهم ذا زاد ان يتحفظ بزاده فلا يرمي به[5] . وقد عرف هؤلاء بـ (المتوكلة) ، لتوكلهم على (رب البيت) في اطعام أنفسهم ، واعتمادهم في ذلك على السؤال.

وقد ذكر علماء التفسير ان الآية : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » نزلت « في طائفة من العرب كانت تجيء الى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا ، فكانوا يبقون عالة على الناس ، فنهوا عن ذلك ، وأمروا بالزاد . وكان للنبي صلى الله عليه وسلم في مسيره راحلة عليها زاد ، وقدم عليه ثلثمائة رجل من مزينة ، فلما أرادوا ان ينصرفوا قال : يا عمر زوّد

---

١ اليعقوبي (١/٢٢٦) .
٢ المحبر (ص١٨١) .
٣ المحبر (ص١٧٩) ، الروض (١/١٣٣) .
٤ البقرة ، الآية ١٩٧ .
٥ تفسير الطبري (٢/١٦٢) ، (ان قوما كانوا يرمون بأزوادهم ويتسمون بالمتوكلة ، فقيل لهم تزودوا من الطعام ، ولا تلقوا كلكم على الناس) ، تفسير الطبرسي (١/٢٩٤) .

القوم ..... كما روى البخاري عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس »[1] .

ويظهر مما تقدم ان (المتوكلة) لم يكونوا جميعاً من الفقراء المحتاجين ، بل كان منهم قوم أغنيـــاء فضل الله عليهم ، بدليل انهـــم كانوا اذا حجّوا رموا زادهم ، أو أعطوه للمحتاج اليه ، يفعلون ذلك ديانة وتقرباً الى الله ، كما فعل (المتوكلـــة) من بعدهم في الاسلام . فهم اذن طائفة من الطوائف الجاهليـــة المتدينة ، ترى ان التقشف في الحج ، يزيد في ثوابه ، ويقرب أصحابه الى رب البيت .

ويريد أهل الأخبار بالثياب (الإحرام) على ما يظهر . وهو قديم وقد عرف عند غير العرب أيضاً . وهو محاكاة لملابس رجال الدين الذين يخدمون المعابد ، ويتقربون الى الآلهة . وهو يتكون من قطعتين من : إزار ومن وشاح . ويكون أبيض اللون . واللون الأبيض من الألوان التي تعبر عن معان دينية . فقـــد كان رجال الدين والكهنة يلبسون الثيـــاب البيض . كما انه شعار الحـــزن عند بعض الشعوب ، وفي جملتهم عرب الحجاز[2] . ويظهر ان أهـــل مكة وهم قريش ، كانوا يلبسون الإحرام ، أو يكرهونه لغيرهم من العرب أو يعيرونه لهم إن كانوا من حلفائهم ، فيحرمون كإحرام قريش . أما من لم يتمكن من الحصول عـــلى الإحرام ، فقد كان يضطر بحكم الضرورة إلى الطواف عرياناً على نحو ما يقصه علينا أهل الأخبار .

أما بالنسبة الى أهل العربية الجنوبية من معينيين وسبئيين وقتبانيين وحضرميين ، فإننا لا نستطيع ان نتحدث عن سنة الطواف حول المعابد عندهـــم ، لعدم ورود شيء عن ذلك في النصوص الواصلة الينا . ولكني لا أستبعد احتمال طوافهم حول بيوت أصنامهم على نحو ما كان يفعله أهل الحجـاز ، لأن الطواف حول بيوت الأصنام أو حول الصنم من السنن الشائعة بين العرب وعند جماعات من بني إرم والنبط .

---

١ تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢/٤١١) ، تفسير ابن كثير (١/٢٣٩) .
٢ Shorter Ency. of Islam, p. 160.

التلبية :

وذكر (محمد بن حبيب) ان طواف أهل الجاهلية بالبيت اسبوعاً ، وذكر انهم كانوا يمسحون الحجر الأسود ، ويسعون بين الصفا والمروة . وكانوا يلبّون. وذكر ان نسك قريش كان لإساف ، وان تلبيتهم : « لبيك اللهم لبيك، لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك »[1] . وان تلبيـــة من نسك للعزى : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، ما أحبنا اليك » . وان تلبية من نسك للات : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى ببيتنا بنيّة، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية أربابه من صالحي البريـــة » . وكانت تلبية من نسك لجهار : « لبيك ، اللهم لبيك. لبيك ، اجعل ذنوبنا جبار،واهدنا لأوضح المنار ، ومتعنا وملنا بجهار » . وكانت تلبية من نسك لشمس : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، ما نهارنا نجره ، ادلاجه وحره وقره ، لا نتقي شيئاً ولا نضره، حجاً لرب مستقيم بره » ، وكانت تلبية من نسك لمحرّق : « لبيك ، اللهـم لبيك ، لبيك حجاً حقاً ، تعبّداً ورقاً » ، وكانت تلبية من نسك لودّ : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، معذرة اليك » . وكانت تلبيـــة من نسك ذا الخلصة : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، بما هو أحب اليك » . وكانت تلبية من نسك لمنطبق : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك » . وتلبية عك ، انهم كانوا اذا بلغوا مكة ، يبعثون غلامين أسودين أمامهم ، يسيران على جمل ، مملوكين،قد جردا، فهما عريانان ، فلا يزيدان على ان يقولا : « نحـــن غرابا عك » . واذا نادى الغلامان بذلك صاح من خلفهما من عك : « عك اليك عانية ، عبادك اليمانية ، كيما نحج الثانية ، على الشداد الناجية »[1] .

وكانت تلبية من نسك مناة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لولا ان بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك ، ما زال حج عشـــج يأتونك ، إنا على عدوائهم من دونك » . وتلبية من نسك لسعيدة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لبيك ، لم نأتك للمياحة ، ولا طلباً للرقاحة ، ولكن جئناك للنصاحة » . وكانت تلبيـة من نسك ليعوق : « لبيك اللهـم لبيك ، لبيك ، بغض الينا الشر ، وحبب الينـــا الخير ، ولا تبطرنا فنأشر ، ولا تفدحنا بعثار » . وكانت تلبية من نسك ليغوث :

---

١ المحبر (٣١٣) .

« لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، أحبنا بما لديك : فنحـــن عبادك ، قد صرنا اليك » . وكانت تلبية من نسك لنسر : « اللهم لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، اننا عبيد ، وكلنا ميسرة عتيد ، وأنت ربنا الحميد ، اردد الينا مُلكنا والصيد». وكانت تلبية من نسك ذا اللبا : « لبيك اللهـــم لبيك ، لبيك ، رب فاصرفن عنّا مضر ، وسلّمن لنا هذا السفر ، إن عما فيهم لمزدجر ، واكفنا اللهم أرباب هجر » . وكانت تلبية من نسك لمرحب : « لبيك اللهـــم لبيك ، لبيك ، اننا لديك . لبيك ، حببنا اليك » . وكانت تلبية من نسك لذريـــح : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، كلنا كنود ، وكلنا لنعمة جحود، فاكفنا كل حية رصود ». وكانت تلبية من نسك ذا الكفين : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، إن جرهماً عبادك ، الناس طُرف وهم تلادك ، ونحن أولى منهم بولائك » . وتلبيـة من نسك هبل : « لبيك اللهم لبيك ، اننا لقاح ، حرمتنا على أسنة الرماح ، يحسدنا الناس على النجاح »[1] .

وقد تعرّض (اليعقوبي) لموضوع التلبية ، فقال : « فكانت العرب ، اذا أرادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنده ، ثم تلبوا حتى يقدموا مكة . فكانت تلبياتهم مختلفة . وكانت تلبية قريش : لبيك اللهـــم لبيك لا شريك لك ، تملكه وما ملك . وكانت تلبية كنانة : لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف ، يوم الدعاء والوقوف . وكانت تلبية بني أسد : لبيك اللهم لبيك ، يا رب أقبلت بنو أسد ، أهل التواني والوفاء والجلد اليك . وكانت تلبية بني تميم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك عن تميم ، قـــد تراها قـــد أخلقت أثوابها وأثواب من وراءها ، وأخلصت لربها دعاءها . وكانت تلبية قيس عيلان: لبيك اللهم لبيك ، لبيك أنت الرحمان ، أتتك قيس عيلان ، راجلها والركبان . وكانت تلبية ثقيف : لبيك اللهم إن ثقيفاً قد أتوك ، وأخلفوا المال وقد رجوك . وكانت تلبية هذيل : لبيك عن هذيل قد أدلجوا بليل ، في إبل وخيل . وكانت تلبيـة ربيعة : لبيك ربنا لبيك ، لبيك إن قصدنا اليك . وبعضهم يقول : لبيك عن ربيعة ، سامعة لربها مطيعـة . وكانت حمير وهمـــدان يقولون : لبيك عن حمير وهمدان والحليفين من حاشد والهان . وكانت تلبية الأزد : لبيك رب الأرباب ،

---

١ المحبر (٣١١ ــ ٣١٥) .

تعلم فصل الخطاب ، لملك كل مثاب . وكانت تلبية مذحج : لبيك رب الشعرى ، ورب اللات والعزى . وكانت تلبية كندة وحضرموت : لبيك لا شريك لك ، تملكه ، أو تهلكه ، أنت حكيم فاتركه . وكانت تلبية غسان : لبيك رب غسان ، راجلها والفرسان . وكانت تلبية بجيلة : لبيك عن بجيلة في بارق ومخيلة ، وكانت تلبية قضاعة : لبيك عن قضاعة ، لربها دفاعة ، سمعاً له وطاعة . وكانت تلبية جذام : لبيك عن جذام ، ذوي النهي والأحلام ، وكانت تلبية عك والأشعريين :

نحج للرحمان بيتاً عجبا مستتراً مضبباً محجبا [1]

و (التلبية) اجابة المنادي ، أي اجابة الملبي ربه . وقولهم : لبيك اللهم لبيك ، معناه اجابتي لك يا رب ، واخلاصي لك [2] . وقد كان الجاهليون يلبّون لأصنامهم تلبيات مختلفة . وقد ذكر (أبو العلاء المعري) ، ان تلبيات العرب جاءت على ثلاثة أنواع : مسجوع لا وزن له ، ومنهوك ، ومشطور . فالمسجوع كقولهم :

لبيك ربنا لبيك والخير كله بيديك

والمنهوك على نوعين : أحدهما من الرجز ، والآخر من المنسرح ، فالذي من الرجز كقولهم :

لبيك إنّ الحمد لك والملك لا شريك لك
إلا شريك هو لك تملكه وما ملك
أبو بنات بفدك

وكقولهم :

لبيك يا معطي الأمر لبيك عن بني النمر
جئناك في العام الزمر نأمل غيثاً ينهمر
يطرقُ بالسيل الخَمر

---

١ اليعقوبي (١/٢٢٥ وما بعدها) .
٢ اللسان (١/٧٣٢) ، (لبيب) .

والذي من المنسرح جنسان : أحدهما في آخره ساكنان كقولهم :

لبيك رب همـــدان من شاحط ومن دان
جئناك نبغي الإحسان بكل حرف مذعان
نطوي اليك الغيطان نأمل فضل الغفران

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم :

لبيك عن بجيلـــه الفخمـــة الرجيله
ونعمـــت القبيلـــه جاءتك بالوسيلـــه
تؤمـــل الفضيلـــه

وربما جاءوا على قوافٍ مختلفة ، من ذلك تلبية بكر بن وائل :

لبيك حقاً حقـــا تعبـــداً ورقـــا
جئنـــاك للنصاحـــة لم نـــأت للرقاحـــه

وروي في تلبية (تميم) قولها :

لبيك لولا أن بكراً دونكا يشكرك النـــاس ويكفرونكا
ما زال منا عنج يأتونكا

ورووا أن من تلبيات همدان :

لبيك مع كـل قبيل لبيك همدان أبناء الملوك تدعوك
قد تركوا أصنامهم وانتابوك فاسمع دعاءً في جميع الأملوك

ومن تلبياتهم قولهم :

لبيك عن سعد وعن بنيهـا وعن نساء خلفهـــا تعنيهـــا
سارت الى الرحمة تجتنيها

وختم (أبو العلاء المعري) رأيه عن التلبية بقوله : « والموزون من التلبية ، يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب ، ولم تأت التلبية بالقصيـد . ولعلهم قد لبّوا به ولم تنقله الرواة »[1] .

١ رسالة الغفران (ص ٥٣٥ ـ ٥٣٧) . (بنت الشاطىء) .

والتلبية هي من الشعائر الدينية التي أبقاها الإسلام ، غير أنه غير صيغتها القديمة بما يتفق مع عقيدة التوحيد . فصارت على هذا النحو : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك »[1] . كما جعلها جزءاً من حج مكة ، بعد أن كانت تتم خارج مكة ، إذ كانت كل قبيلة تقف عند صنمها ، وتصلي عنده ثم تلبي ، قبل أن تقدم مكة[2] . وذلك بالنسبة لمن كان يحج مكة . فأبطل ذلك الإسلام ، وألغى ما كان من ذلك من حج أهل الجاهلية . وقد رأينا صيغ التلبيات ، وكيف كانت تلبيات القبائل خاصة بها ، تلبي كل قبيلة لصنمها ، وتوجه نداءها اليه .

وتردد جمل التلبية بصوت مرتفع ، ولعل ذلك لاعتقاد الجاهليين أن في رفع الصوت إفهاماً للصنم الذي يطاف له بأن الطائف قد لبى داعيه ، وأنه استجاب أمره وحرص على طاعته . وقد أشار بعض الكتاب (الكلاسيكيين) الى الصخب والضجيج الذي كان يرتفع في مواضع الحج بسبب هذه التلبية .

وهناك مواضع أخرى غير متصلة بالبيت الحرام ، كانت مقدسة وداخلة في شعائر الحج ، منها عرفة ومنى والمزدلفة والصفا والمروة ، ومواضع أخرى كان يقصدها الجاهليون لقدسيتها أو لوجود صنم بها ، ثم حرمها الاسلام ، فنسيت وأهملت فذهبت معالمها مع ما ذهب من معالم الجاهليين .

وتقف الحمس في حجها على أنصاب الحرم من نمرة على نحو ما ذكرت أما الحلة والطلس ، أي غير الحمس من بقية العرب فيقفون على الموقف من عرفة ، عشية يوم (عرفة) . فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من أنصاب الحرم حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً . وكانوا يدفعون من عرفة اذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم . فيبيتون بمزدلفة حتى اذا كانت في الغلس وقفت الحلة والحمس على (قزح) ، فلا يزالون عليه حتى اذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في

---

١ البخاري ، كتاب الحج ، الحديث ٣١ وما بعده ، عمدة القارىء (١٧٢/٩ وما بعدها)، بلوغ الارب (٢٨٨/٢) ، ارشاد الساري (١٩٧/٣) ، (باب التلبية والتكبير اذا غدا من منى الى عرفة) .

٢ اليعقوبي (٢٢٥/١) ، (أديان العرب) .

وجوههم دفعوا من مزدلفة ، وكانوا يقولون : أشرق ثبير كيما نغير[1] .

ومن مناسك الحج الطواف بالصفا والمروة ، وعليها صنمان : اساف ونائلة . وكان الجاهليون يمسحونهما[2] . وكان طوافهم بهما قدر طوافهم بالبيت، أي سبعة أشواط . تقوم بذلك قريش ، أما غيرهم فلا يطوفون بهما ، وذلك على أغلب الروايات . ويظهر ان الصفا والمروة من المواضع التي كان لها أثر خطير في عبادة أهل مكة . ففي حج أهل مكة طوافان : طواف بالبيت ، وطواف بالصفا والمروة .

وبين الصفا والمروة يكون (السعي) في الاسلام ، ولذلك يقال للمسافة بين المكانين (المسعى) . وكان إساف بالصفا ، وأما نائلة فكان بالمروة[3] . ولا بد ان يكون لاقتران الاسمين دائماً سبب ، و (المسعى) هو الرابط المقدس بين هذين الموضعين المقدسين عند الجاهليين .

وكان أهل مكة يتبركون بلمس الحجر الأسود ، ثم يسعون بين الصفا والمروة. ويطوفون بإساف أولاً ويلمسونه ، كل شوط من الطواف ثم ينتهون بنائلة . ويلبّون لها : وكانت تلبيتهم لها : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك »[4] . وذكر أن (الأنصار) ، لما قدموا مع النبي في الحج ، كرهوا الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية ، وأرادوا تركه في الاسلام . وذكر أن قوماً من المسلمين قالوا : يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة ، فإنه شرك كنّا نصنعه في الجاهلية . فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بين الصفا والمروة مسحوا الوثنين، فلما جاء الاسلام وكسرت الاصنام ، كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين ، فأنزل الله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »[5] . ويتبين من غربلة الأخبار أن الذين كانوا يطوفون بالصنمين المذكورين ويسعون بينهما ، هم من عبّاد الصنمين وهم قريش

---

١ الازرقي (٢/٢٢٦) ، مسند ابن حنبل (١/٣٩ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢) ، الأم للشافعي (٢/١٨٠) ،

٢ البلدان (٥/٣٦٥) ، (٨/٣٨) ، ارشاد الساري (٣/١٨٧) .

٣ Reste, S. 77.

٤ المحبر (٣١١) ، الازرقي (١/١١٢) .

٥ البقرة ، الآية ١٥٨ ، أسباب النزول (٣٠ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٢/٤٣) ، (طبعة البابي ١٩٥٤م) .

خاصة ، وليس كل من كان يحج الى مكة من العرب ، ولذلك كرهوا الطواف في الإسلام بالصفا والمروة . وقد استبدل الإسلام بالطواف السعي ، لهدم الصنمين اللذين كان الناس يطوفون حولهما واكتفى بالسعي بين الموضعين .

وذكر بعض العلماء أن العرب عامة كانوا لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بينهما فأنزل الله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »[1] ، أي لا تستحلون ترك ذلك[2] . وذكر أن الأنصار كانوا يهلّون لمناة في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام قالوا : يا نبي الله إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما ، فأنزل الله الآية المذكورة . وكان أهل (تهامة) ممن لا يطوفون أيضاً بين الصفا والمروة ، فلما جاء الاسلام ونزل الأمر بالطواف بالبيت ، ولم ينزل بالطواف بين الصفا والمروة ، قيل للنبي : انا كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا والمروة وان الله قد ذكر الطواف بالبيت ولم يذكر الطواف بين الصفا والمروة فهل علينا من جناح أن لا نطوف بهما . فنزل الوحي: « ان الصفا والمروة من شعائر الله » ، فصار الطواف بين الصفا والمروة لجميع الحجاج ، لا كما كان في عهد الجاهلية . من اقتصاره على قريش وبعض العرب المتأثرين بهم . فكانوا يطوفون بهما ويمسحون بالوثنين إساف ونائلة ، فلما جاء الاسلام تحرج بعض الناس وفيهم قوم من قريش من الطواف بينها لأنهما من شعائر الجاهلية ، فنزل الأمر به[3] .

وذكر أهل الأخبار ان السعي بين الصفا والمروة ، شعار قديم من عهد هاجر أم اسماعيل . وأما رمل الطواف ، فهو الذي أمر به النبي ، أصحابه في عمرة القضاء ليُري المشركين قوتهم ، حيث قالوا : وهنتهم حمى يثرب[4] .

---

١ البقرة ، الآية ١٥٨ .

٢ تاج العروس (٣/٣٠٤) ، (شعر) ، روح المعاني (٢/٤١ ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢/١١٤) ، الازرقي (٧٤) ، تفسير ابن كثير (١/١٩٨) ، صحيح البخاري (١/٤١٤) ، الموطأ (١/٣٧٣) ، ارشاد الساري (٣/١٨٧) .

٣ تفسير الطبري (٢/٢٧ وما بعدها) ، الطبرسي (٢/٤٥) ، ابن كثير (١/١٨٨ ، ٢٠٠) ، البخاري (١/٤١٤) ، (باب ٧٩) ، الموطأ (١/٦٥٣) ، (١/٣٧١) ، (باب ٤٠) .

٤ اللسان (١١/٢٩٥ وما بعدها) ، (رمل) .

وورد في خبر عن (عائشة) انها قالت : « إن الأنصار كانوا يهلّون في الجاهلية لصنمين على شط البحر ، يقال لهما : إساف ونائلة ، ثم يجيئون، فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون ، فلما جاء الاسلام ، كرهوا ان يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعون في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : إن الصفا والمروة من شعائر الله الى آخرها . قالت : فطافوا » . وهو خبر يناقض أخباراً أخرى يتصل سندها بـ (عائشة) ، تجمع على انهـا قالت : إن الأنصار أو الأنصار وغسان كانوا قبل ان يسلموا يصلّون لمناة ، فلا يحل لهم ان يطوّفوا بين الصفا والمروة، وكان ذلك سنّة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة[1] ، ولم أجـد في خبر آخر شيئاً يفيد ان إسافاً ونائلة كانا على ساحل البحر .

و (السعي) في الاسلام سبعة أشواط ، تبدأ بالصفا ، وتختتم بالمروة . وعندما يصل الحاج حد (السعي) يسعى ويهرول ، فإذا جاز الحد مشى. وكان الجاهليون يبدأون بـ (الصفا) وينتهون بـ (المروة) كذلك[2] .

ومن مناسك حج أهل الجاهلية الوقوف بـ (عرفة) ، ويكون ذلك في التاسع من ذي الحجـة ويسمى (يوم عرفة) . ومن (عرفة) تكون (الإجـازة) للإفاضة الى (المزدلفة) ، ومن (المزدلفة) الى (منى) . وقد كان الجاهليون من غير قريش يفيضون في عرفة عند غروب الشمس ، وأما في المزدلفة فعنـد شروقهـا . وكان الذي يتولى الإجازة رجلاً من تميم يقال له (صوفـة) ، ثم انتقلت الى (صفوان) من تميم كذلك[3] . ولم يكن (الحمس) يحضرون عرفة ، وإنما يقفون بالمزدلفة ، وكان سائر الناس يقف بعرفة . ولما رأى أحـد الصحابة رسول الله واقفاً بعرفة عجب من شأنه وأنكر منه ما رأى لأنه من الحمس ، وما كان يظن أنه يخالف قومه في ذلك ، فيساوي نفسه بسائر الناس[4] . فأنزل الله : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم »[5] ،

---

١ صحيح مسلم (٤/٦٨) ، (باب بيان أن السعي بين الصفـا والمـروة ركن لا يصح الحج الا به) .

٢ راجع باب الحج في كتب الحديث والفقه .

٣ ابن هشام (٧٧ ، ٨٢) ، اللسان (٧/١٩١) ، تاج العروس (٦/١٩٣) ، الروض الانف (١/٨٦) ، الصحاح (٣/١٠٩٩) ، البلدان (٤/١٠٤) .

٤ ارشاد الساري (٣/٢٠٠) ، تفسير الطبرسي (٢/٢٩٦) ، تفسير ابن كثير (١/٢٤٢ وما بعدها) ، أسباب النزول (٤٢) .

٥ البقرة ، الآية ١٩٩ .

فشمل ذلك الحمس وغيرهم . فأخذوا يقفون كلهم موقف عرفة ، ووضع عن قريش ما فعلوه من تمييز أنفسهم عن الناس[1] .

وورد في روايات أخرى ، أن قريشاً وكل حليف لهم وبني أخت لهم ، لا يفيضون من عرفات ، إنما يفيضون من المغمس ، وورد أن قريشاً وكل ابن أخت وحليف لهم ، لا يفيضون مع الناس من عرفات ، يقفون في الحرم ولا يخرجون منه . يقولون : إنما نحن أهل حرم الله ، فلا نخرج من حرمه ، وأنهم قالوا « نحن بنو ابراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت ، وقاطنوا مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل ، كما تعظمون الحرم . فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها »[2] .

وذكر أن قريشاً ومن دان بدينها تفيض من (جمع) من المشعر الحرام[3] . و (جمع) المزدلفة[4] .

و (عرفة) أو (عرفات) موضع على مسافة غير بعيدة عن مكة[5] . لا بد وان يكون من المواضع التي كان يقدسها أهل الجاهلية ، وان يكون له ارتباط بصنم من الأصنام ، وإلا لما صار جزءاً من أجزاء مناسك الحج وشعائره عند الجاهليين . ويقف الحجاج موقف عرفة من الظهر الى وقت الغروب . وقد يكون لموقف الجاهليين في عرفة وقت الغروب علاقة بعبادة الشمس . فإذا غربت الشمس اتجه الحجاج الى (المزدلفة) .

---

١ تفسير الطبري (٢/١٦٦ وما بعدها) .

٢ تفسير الطبري (٢/١٧٠) .

٣ أسباب النزول (٤٢) .

٤ قال أبو ذؤيب :

فبات بجمع ثم تم الى منى فأصبح رادا يبتغي المزج بالسحل

تاج العروس (٥/٣٠٥) ، (جمع) .

٥ (وعرفات ، موقف الحاج ذلك اليوم على اثني عشر ميلا من مكة) ، تاج العروس (٦/١٩٣) ، تفسير الطبري (٤/١١٤ وما بعدها) ، أخبار مكة (١/١١٥ وما بعدها) .

الإفاضة :

ومن (عرفة) تكون الإفاضة الى (المزدلفة) . و (المزدلفة) ، موضع يكاد يكون على منتصف الطريق بين (عرفة) و (منى) . وفيه يمضي الحجاج ليلتهم ، ليلة العاشر من (ذي الحجة) . ومنه تكون الإفاضة عند الشروق الى (منى) . وقد نعت بـ (المشعر الحرام) في القرآن الكريم[1] . ويذكر أهل الأخبار ان (قصي بن كلاب) ، كان قد أوقد ناراً على (المزدلفة) حتى يراها من دفع من عرفة ، وان العرب سارت على سنته هذه ، وبقيت توقدها حتى في الاسلام[2] . ولا بد وان يكون من المواضع الجاهلية المقدسة كذلك ، التي كان لها صلة بالأصنام . وقد ذكر علماء اللغة اسم جبل بالمزدلفة دعوه (قزحاً) ، قالوا انه (هو القرن الذي يقف عنده الإمام)[3] ، وذكروا ان (قزح) اسم شيطان[4] . ونحن نعرف اسم صنم يقال له (قزاح) ، قد تكون له صلة بهذا الموضع .

ويفيض الحجاج في الجاهلية عند طلوع شمس اليوم العاشر من ذي الحجة من (المزدلفة) الى (منى) ، لرمي الجمرات ولنحر الأضحية . و(منى) موضع لا يبعد كثيراً عن مكة . ولعلماء اللغة آراء في سبب التسمية ، من جملتها انها عرفت بذلك لما يمنى بها من الدماء[5] . وذكر بعض أهل الأخبار ان (عمرو بن لحي) نصب بمنى سبعة أصنام ، نصب على (القرين) القرن الذي بين مسجد منى والجمرة الأولى صنماً ، ونصب على الجمرة الأولى صنماً ، وعلى الجمرة الوسطى صنماً ، وعلى شفير الوادي صنماً[6] . ولا بد أن يكون لهذا الموضع صلة بالأصنام ، نظراً لما له من علاقة متينة بمناسك الحج . وقد يكون لرمي الجمرات ولنحر الذبائح صلة بتلك الأصنام .

---

١ سورة البقرة ، الآية ١٩٨ ، تفسير الطبري (٢/١٦٤) ، روح المعاني (٢/٧٤) ، تفسير ابن كثير (١/٢٤٢) .

٢ نهاية الارب (١/١٠٩) ، (ذكر نيران العرب) ، صبح الاعشى (١/٤٠٩) ، الازرقي (٣٦ ، ١٣٠ ، ٤١١ ، ٤١٥) ، (وستنفلد) ، ابن هشام (٧٧) ، ابن سعد (١/٧٢)، (صادر) ، اللسان (٩/١٣٨) ، البلدان (٤/٥١٩) ، تاج العروس (٦/١٣١) .

٣ تاج العروس (٢/٢٠٧) ، (قزح) .

٤ تاج العروس (٢/٢٠٧) ، (قزح) .

٥ تاج العروس (١٠/٣٤٨) ، (منى) .

٦ الازرقي (٢/١٤٢) .

وقد ذكر العلماء «أن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثبير »[1] . وأن النبي خالفهم ، فأفاض حين أسفر قبل طلوع الشمس »[2]. وفي فعل المشركين ذلك ، ووقوفهم انتظاراً للإفاضة عند طلوع الشمس ، دلالة على عبادة الشمس عندهم ، ولهذا غيّر الرسول هذا الوقت .

و (رمي الجمرات) بمنى من مناسك الحج وشعائره . وهو من شعائر الحج كذلك المعروفة في المحجات الأخرى من جزيرة العرب . كما كان معروفاً عند غير العرب أيضاً . وقد أشير اليه في التوراة[3] . وهو معروف عند (بني إرم)[4]. وكلمة (رجم) من الكلمات السامية القديمة . وقد وردت في حديث (عبدالله ابن (مغفل) : لا ترجموا قبري ، أي لا تجعلوا عليه الرجم ، وهي الحجارة، على طريقة أهل الجاهلية ، ولا تجعلوه مسنّماً مرتفعاً[5] . وقد فعله أهل الجاهلية على سبيل التقدير والتعظيم . فكان أحدهم إذا مرّ بقبر ، وأراد تقدير صاحبه وتعظيمه وضع رجمة أو رجاماً عليه .

(والجمرات) ، أي مواضع (رمي الجمرات) عديدة عند الجاهليين ، يطاف حولها ، ويحج اليها[6] منها مواضع أصنام ، وأماكن مقدسة ، ومنها قبور أجداد . وقد ورد قسم بها في بيت ينسب الى شاعر جاهلي[7] . وترمى الجمرات على مكان عرف بـ (جمرة العقبة) وبـ (الجمار) وبـ (موضع الجمار) وهو بـ (منى) ، وتتجمع وتتكوم عنده الحصى . وهي جمرات ثلاث : الجمرة

---

١ ارشاد الساري (٣/٢١٠) .

٢ المصدر نفسه .

٣ التكوين ، الاصحاح الحادي والثلاثون ، (وقال لابان ليعقوب : هوذا هذه الرجمة ، وهو ذا النصب الذي وضعت بيني وبينك) ، الآية ٥١ .

٤ Shorter Ency., p. 464, Reste, S. 112.

٥ النهاية (٢/٧٤)) اللسان (١٥/١١٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٨/٣٠٤ ومابعدها) ، (رجم) .

٦ المشرق : السنة : السنة التاسعة والثلاثون ، تموز – أيلول ١٩٤١ م ، (٢٤٦) ، Reste, S. 111.

٧ فاقسم بالذي قد كان ربي وأنصاب لدى الجمرات مغر
ابن هشام (٥٣٤) ، المشرق ، الجزء المذكور . قال حذيفة بن أنس الهذلي :
لأدركهم شعث النوامي كانهم سواشق حجاج توافي المجمرا
اللسان (٥/٢١٧) .

الأولى ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العقبة[1] .

ويرجع أهل الأخبار مبدأ رمي الجمرات الى (عمرو بن لحي) . يذكرون انه جاء بسبعة أصنام فنصبها بـ (منى) ، عند مواضع الحجرات ، وعلى شفير الوادي ، ومواضع أخرى ، وقسم عليها حصى الجمار ، احدى وعشرين حصاة ، يرمي كل منها بثلاث جمرات ، ويقال للوثن حين يرمى : أنت أكبر من فلان الصنم الذي يرمى قبله[2] .

وكانت إفاضة الجاهليين على هذا النحو : كان أمر الإفاضة بيد رجل من أسرة تناوبت هذا العمل أباً عن جد . وقد اشتهر منهم رجل عرف بـ (عميلة ابن خالد العدواني) ، واشتهر بين الناس بـ (أبي سيّارة) . كان يجيز الناس من المزدلفة الى منى أربعين سنة . يركب حماراً أسود ، وينظر الى أعالي جبل (ثبير) ، فإذا شاهد عليها أشعة الشمس الأولى نادى : أشرق ثبير ، كيما نغير ! ثم يجيز لهم بالإفاضة وفيه يقول الشاعر :

خلّوا الطريق عن أبي سيّاره وعن مواليه بني فزاره
حتى يجيز سالماً حماره مستقبل القبلة يدعو جاره
فقد أجار الله من أجاره[3]

وضرب به المثل ، فقيل : أصح من عير أبي سيّارة[4] .

وذكر (الجاحظ) أن اسم (أبي سيّارة) (عميلة بن أعزل) ، دفع بأهل الموسم أربعين عاماً ، ولم يكن عيره عيراً وإنما كان أتاناً ، ولا يعرفون حماراً وحشياً عاش وعمّر أطول من عير (أبي سيارة)[5] .

---

١ تاج العروس (٣/١٠٧) ، (حجر) ، (١٠/٣٤٨) ، (منى) .
٢ الازرقي ، اخبار (ص ٤٠٢) ، (لايبزك) .
٣ اللسان (٧/١٩١) ، الروض الانف (١/٨٦) ، الميداني (١/٤٢١ وما بعدها) ، البلدان (٣/٦) ، (ثبير) ، البكري (١/٣٣٥) ، (طبعة السقا) ، (وأبو سيارة : عميلة بن أعزل) ، الحيوان (٧/٢١٥) ، (عبد السلام محمد هارون) ، ارشاد الساري (٣/٢١٠) .
٤ تاج العروس (٣/٢٨٧) ، (سير) ، نهاية الارب (١٦/٣٦ وما بعدها) .
٥ الحيوان (١/١٣٩) .

وورد أن الذين كان لهم أمر الإجازة بالحجاج،وهي الإفاضة ، هم (صوفة) . وهم حيّ من مضر من نسل (الغوث بن مرّ بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر) ، وقد سمّوا (صوفة) و (آل صوفة) ، لأن (الغوث) أبوهم جعلت أمه في رأسه صوفة وجعلته ربيطاً للكعبة يخدمها . وكانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج ، أي يفيضون بهم ، فيكونون أول من يدفع . وكان أحدهم يقوم فيقول : أجيزي صوفة ، فإذا أجازت ، قال : أجيزي خندف ، فإذا أجازت أذن للناس كلهم في الإجازة . وكانت الاجازة بالحج اليهم في الجاهلية . وكانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتى تدفع بها صوفة ، وكذلك لا ينفرون من (منى) حتى تنفر (صوفة) ، فإذا أبطأت بهم، قالوا: أجيزي صوفة . وورد أن (صوفة) قوم من (بني سعد بن زيد مناة) من تميم[1] .

ويفهم من رواية أن كلمة (صوفة) لم تكن اسم علم ، وإنما هي لفظة أطلقت على من كان يتولى البيت أو قام بشيء من خدمته ، أو بشيء من أمر المناسك[2] . فهم من رجال الدين ، تخصصوا بالإجازة بالناس في مواسم الحج . ولعلهم كانوا يضعون على رأسهم صوفة على هيأة عمامة أو عصابة ، أو عطر ، لتكون علامة على أنهم من أهل بيت دين وشرف . فعرفوا بـ (صوفة) وبـ (آل صوفة) وبـ (صوفان) . وفي ذلك قال (مرة بن خليف الفهمي) ، وهو شاعر جاهلي قديم :

إذا ما أجازت صوفة النقب من منى ولاح قتار فوقه سفع الدم[3]

و (يظهر) من الروايات الواردة عن (ثبير) ، أنه كان من المواضع المقدسة عند الجاهليين،أو أن على قمته صنماً أو بيتاً كانوا يصعدون اليه لزيارته وللتبرك به[4]. ومن الشعائر المتعلقة بمنى نحر الذبائح ، وهي الأضحية في الاسلام و (العتائر)

---

١ تاج العروس (٦/١٦٩) ، (صوف) ، معجم الشعراء (٣٨٢) ، ابن هشام (١/٧٧ ، ٨٢) .

٢ الروض الانف (١/٨٥) .

٣ معجم الشعراء (٣٨٢) .

٤ المشرق ، السنة التاسعة والثلاثون (١٩٤١ م) ، (ص ٢٥٩) .

في الجاهلية . ولذلك عرف هذا العيد : عيد الحج بـ (عيد الأضحى). وعرف اليوم الذي تضحى به الأضحية بـ (يوم النحر) وبـ (الأضحى) وبـ (يوم الأضحى) . وكانوا ينحرونها على الأنصاب وعلى مقربة من الأصنام ، فتوزع على الحاضرين ليأكلوها جماعة أو تعطى للأفراد . وقد تترك لكواسر الجو وضواري البر فلا (يصد عنها انسان ولا سبع)[1] . وتبلغ ذروة الحج عند تقديم العتائر ، لأنها أسمى مظاهر العبادة في الأديان القديمة .

وكان الجاهليون يقلدون هديهم بقلادة ، أو بنعلين ، يعلقان على رقبتي الهدي ، اشعاراً للناس بأن الحيوان هو هدي ، فلا يجوز الاعتداء عليه ، كما كانوا يشعرونه . والإشعار الإعلام . وهو ان يشق جلد البدنة أو يطعن في اسنمها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه ، وقيل في سنامها الأيمن حتى يظهر الدم ويعرف انهـا هدي . والشعيرة البدنة المهداة[2] .

وكان بعض أهل الجاهلية ، يسلخون جلود الهدي ، ليأخذوها معهم . ويتفق هذا مع لفظة (تشريق) التي تعني تقديد اللحم . ومنه سميت ايام التشريق ، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأن لحوم الأضاحي تشرق فيها ، أي تشرّر في الشمس[3] . وقيل سمي التشريق تشريقاً ، لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق الشمس[4] . ويظهر ان الجاهليين كانوا ينحرون قبيل شروق الشمس وعند شروقها ، بدليـل ما ورد في الحديث من النهي عن ذلك . ومن حديث : من ذبح قبل التشريق فليعد . أي قبل أن يصلي صلاة العيد ، وهو من شروق الشمس واشراقها ، لأن ذلك من وقتها[5] .

ولا يحل للحجاج في الجاهلية حلق شعورهم أو تقصيرها طيلة حجهم ، وإلاّ بطل حجّهم . ويلاحظ أن غـير العرب من الساميين كانوا لا يسمحون بقص الشعر في مثل هذه المناسبات الدينية أيضاً ، لما للشعر من أهمية خاصة في الطقوس

---

١ ابن هشام (١٠٠) ، المشرق : السنة السابعة والثلاثون ، كانـون الثاني ـ اذار ١٩٣٩ م ، (٩٢) .

٢ نقتلهم جيلا فجيلا تراهم شعائر قربان بها يتقرب
تاج العروس (٣/٣٠٣ وما بعدها) ، (شعر) .

٣ تاج العروس (٦/٣٩٣) ، (شرق) .

٤ المصدر نفسه .

٥ تاج العروس (٦/٣٩٣) ، (شرق) .

الدينية عندهم ، ولا سيما اللحية لما لها من علاقة بالدين . ولهذا نجد رجال الدين والزهاد والأتقياء الورعين يحافظون عليها ويعتبرونها مظهراً من مظاهر التدين[1] .

وقد كانت القبائل لا تحلق شعورها في مواسم حجّها إلا عند أصنامها ، فكان الأوس إذا حجوا وقفـوا مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوا صنمهم مناة فحلقوا رؤوسهم عنده ، وأقاموا لا يرون لحجّهم تماماً إلا بذلك[2] . وكانت قضاعة ولخم وجذام تحج للأقيصر وتحلق عنده[3] .

وكان من عادة بعض القبائل ، مثل بعض قبائل اليمن ، القاء قرة من دقيق مع الشعر[4] . وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم بمنى وضع كل رجل على رأسه قبضة دقيق ، فإذا حلقوا رؤوسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق ، ويجعلون ذلك الدقيق صدقـة ، فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه ، فيرمون بالشعر وينتفعون بالدقيق . وفي ذلك يقول معاوية بن أبـي معاوية الجرمي :

ألم ترَ جرمـاً أنجدت وأبوكم ... مع الشعر في قص الملبد شارع
إذا قرة جاءت تقول أصب بها ... سوى القمل إني من هوازن ضارع[5]

وكان من يقصد العزى يذبح عند شجرة هناك ثم يدعون ، وكان من يقصد مناة يهدي لها كما كان غيرهم يهدي للكعبة ويطوفون بهـا ثم ينحرون عندها ، وكان عبدة ذي الخلصة في أسفل مكة يذبحون عنده كذلك[6] . وكذلك كانت بقية القبائل تطوف في أعيادها حول أصنامها ، وتهدى اليها ، ثم تنحر عندها عنـد اكمالها هذه الشعائر دلالة على اكمالها شعائر الحج الى هذه المواضع وانتهائها منها على أحسن وجه .

وتميز الحيوانات التي يهيئها أصحابها أو مشتروها للذبح في الحج بعلامات ، بأن توضع عليها قلائد تجعلها معروفة ، أو ان يحدث لها جرح ليسيل منه الدم ليكون ذلك علامة انها هدي . ويقال لذلك إشعار ، ومنه إشعار البدن ، وهو ان يشق

---

١ Smith, p. 323.
٢ الاصنام (ص ١٤) ، البلدان (٨/١٦٩) ، الازرقي (١/٧٣) .
٣ الاصنام (ص ٤٨) ، البلدان (١/٣١٤) ، Reste, S. 62.
٤ الاصنام (ص ٤٨) ، البلدان (١/٣١٤ وما بعدها) ، Reste, S. 62. ff.
٥ تاج العروس (٣/٤٨٦) ، (قرر) .
٦ بلوغ الارب (١/٣٤٤ وما بعدها) .

أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل منه الدم ليكون ذلك علامة الهدي[1] . وقد كان من أهل مكة من يتخذ من لحاء شجر الحرم قلادة يضعها في عنق البدن ، لتكون دلالة على انها هدي ، فلا يعترضها أحد[2] .

ويجوز للحجاج مغادرة (منى) في اليوم العاشر من ذي الحجة ، أي في اليوم الأول من العيد ، ففي هذا اليوم يكمل الحجاج حجهم ، ولكن منهم من يمكث في هذا الموضع حتى اليوم الثالث عشر ، وذلك ابتهاجاً بأيام العيد ، ومشاركة لاخوانه فيه . ويقال لذلك (التشريق) . وايام التشريق هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر[3] .

وكان أهل الجاهلية اذا قضوا مناسكهم وفرغوا من الحج ، وذبحوا نسائكهم ، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم ،فيقول بعضهم لبعض : كان أبي يطعم الطعام ، ويقول بعضهم : كان أبي يضرب بالسيف ، ويقول بعضهم : كان أبي جزّ نواصي بني فلان . يقولون ذلك عند (الجمرة) ، أو عند البيت ، فيخطب خطيبهم ويحدث محدثهم . أو انهم كانوا اذا قضوا مناسكهم وأقاموا بمنى قعدوا حلقاً ، فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية وفعالهم به ، يقوم الرجل ، فيقول : اللهم ان أبي كان عظيم الجفنة عظيم القبّة كثير المال ، وما شاكل ذلك ، فنزل الوحي : « فإذا قضيتم مناسككم ، فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً »[4].

وكانوا إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج ، تقلد قلادة من لحاء السمر ، دلالة على ذهابهم الى الحج ، فيأمن حتى يأتي أهله . وذكر انه كان يقلد نفسه وناقته ، فإذا أراد العودة عادوا مقلدين بلحاء السمر . وروي أنهم إذا أرادوا الحج مقبلين الى مكة يتقلدون من لحاء السمر ، وإذا خرجوا منها الى منازلهم منصرفين منها ، تقلدوا قلادة شعر فلا يعرض لهم أحد بسوء . بقي ذلك شأنهم حتى نزل الأمر بمنع دخول المشركين مكة وبوجوب قتلهم حيث وجدوا[5] .

---

١ النهاية (٢/٤٤٢) .
٢ اللسان (٤/٣٦٩) ، (٦/٨١ وما بعدها) ، الموطأ (١/٢٤٩) ، مسند ابن حنبل (١/٢١٦ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٢٤٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩) ، (٦/٣٥ ، ٨٢ ، ٨٧) .
٣ تاج العروس (٦/٣٩٣) . (شرق) .
٤ البقرة ، الآية ٢٠٠ ، تفسير الطبري (٢/١٧٢ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (٢/٢٩٦ وما بعدها) ،
٥ تفسير الطبري (٦/٣٧ وما بعدها) ، اللسان (٣/٣٦٧) ، (قلد) .

التجارة في الحج :

قـال علماء التفسير : كان متجر الناس في الجاهلية : عكاظ وذو المجاز ، فكانوا إذا أحرموا لم يتبايعوا حتى يقضوا حجهم . ويقولون أيام الحج أيام ذكر. وقالوا : « كان هذا الحي من العرب لا يعرجون على كسير ولا ضالة ليلة النفر. وكانوا يسمّونها ليلـة الصدر ، ولا يطلبون فيها تجارة ولا بيعاً » . وقالوا : « كان بعض الحاج يسمّون الداج . فكانوا ينزلون في الشق الأيسر من منى . وكان الحاج ينزلون عند مسجد منى ، فكانوا لا يتجرون حتى نزلت ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم . هي التجارة . قال : اتجروا في الموسم »[1] . والصدر الإفاضة . ومنه طواف الصدر . وهو طواف الإفاضة[2] .

والداج : الأجراء والمكارون والأعوان ونحوهم الذين مع الحاج[3] . وذكر ان قوماً جاءوا الى (عبدالله بن عمر) ، فقالوا : « انا قوم نكـرى ، فيزعمون انه ليس لنا حج . قال : ألستم تحرمون كما يحرمون ، وتطوفون كما يطوفون ، وترمون كما يرمون ؟ » قالوا بلى . قال فأنتم حاج[4] . ومن يكرى لخدمة الحاج ، فهو من الداج .

العمرة :

و (العمرة) هي بمثابة (الحج الأصغر) في الاسلام ، وكان أهل الجاهلية يقومون بأدائها في شهر (رجب) . وللعمرة في الاسلام شعائر ومناسك ، وتكون بالطواف بالبيت وبالسعي بين الصفا والمروة . ولا بد أن يكون لها عند الجاهليين شعائر ومناسك . وهي في الاسلام فردية اختيارية ، وهي تختلف بذلك عن الحج الذي هو فرض عين على كل مسلم مستطيع ، وجماعي ، أي ان المشتركين فيه يؤدونه جماعة[5] . أما بالنسبة الى الجاهليين ، فيظهر من ذكر العمرة في القـرآن

---

١ تفسير الطبري (٢/١٦٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/٣٢٨) ، (صدر) .
٣ تاج العروس (٢/٣٩) ، (دج) .
٤ تفسير الطبري (٢/١٦٤ وما بعدها) .
٥ Shorter Ency. of Islam, p. 604. ff.

الكريم انهم كانوا يؤدونها كما كانوا يؤدون الحج ، ولوقوعها في شهر رجب ، وهو شهر كان الجاهليون يذبحون العتائر فيه ، لعلنا لا نخطىء اذا قلنا إنهم كانوا يذبحون ذبائحهم في العمـــرة ، حينما يأتون أصنامهم فيطوفون حولهـــا ، أما في الاسلام ، فالعمرة دون الحج . وإذ كانت في شهر رجب في الجاهلية . كانت حجاً خاصاً مستقلاً عن الحج الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة. حرص الجاهليون على ألا يوافق موعدها موعد مواسم الحج ، لما كان لها من أهمية عظيمة عندهم قد تزيد على الطواف المألوف في شهر الحج[1] .

وورد ان أهل الجاهلية كانوا يرون ان العمـــرة من أشهر الحـــج : شوال وذي القعدة وتسع من الحجة وليلة النحر ، أو عشر أو ذي الحجـة من الفجور في الأرض ، أي من الذنوب[2] ، ولكن بعضاً آخر كان يعتمر في كـل شهر ، ولا سيما في رجب ، حيث كانوا يحلقون رؤوسهم ويجيئون الى محجاتهم للعمرة . وورد ان أهل الجاهلية « كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أكبر الكبائر . ويقولون : اذا برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر »[3] .

وذكر ان الأشهر الحرم ثلاثة سرداً وواحداً فرداً ، وهو رجب . أما الثلاثة ، فليأمن من الحجاج واردين الى مكة وصادرين عنها ، شهراً قبل شهر الحـــج ، وشهراً بعده ، قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب ، ثم يرجع . وأما رجب، فللعمّار يأمنون فيه مقبلين وراجعين نصف الشهر للإقبال ونصفه للاياب ، إذ لا تكون العمـرة من أقاصي بلاد العرب كما يكون الحـــج . وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يوماً[4] .

ويلبس المعتمر (الاحرام) أيضاً . وقـد كان الجاهليون يكتفون في عمرتهم بالطواف بالبيت ، أما (السعي) بين الصفا والمروة ، فأغلب الظن ان العرب لم يكونوا يقومون به . بدليل ما ورد في القرآن الكريم من قوله : « إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوّف بهما .

---

١ المشرق ، الجزء ٣٩ (١٩٤١) ، (ص ٢٥٠) ، Reste, S. 84.
٢ ارشاد الساري (٦/١٧٤) .
٣ الروض الانف (١/٣٥١) .
٤ الروض الانف (٢/٦٠) .

ومـــن تطوّع خيراً فان الله شاكر عليم »[1] . ففي هـــذا النص دلالة على ان الجاهليين من غير قريش لم يكونوا يدخلون السعي بينهما في شعائر الحج أو العمرة، وان الله أمر بادخاله فيها . أما موقف الجاهليين بالنسبة لطواف العمرة،فهو نفس موقفهم بالنسبة للطواف بالبيت في أثناء الحج ، والفرق بين الحج والعمرة ، ان الحج هو الاحرام ثم الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمـــروة وقضاء مناسك عرفة والمزدلفة والوقوف بالمواضع التي أمر بالوقوف بها ، بينما العمـــرة الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة[2] ، فلا يكون موقف عرفة من العمرة . وكان الجاهليون يحلقون رؤوسهم للعمرة ، ويكون حلق الرأس علامة لها . فاذا وجدوا رجلاً وقد حلق رأسه علموا انه من (العمار) ، فلا يمسونه بسوء ، إلا اذا مس أحداً بسوء احتراماً للعمرة ولشعائر الدين[3] .

والفرق بين العمرة والحج في الاسلام ، ان العمـــرة تكون للانسان في السنة كلها ، والحج في وقت واحد في السنة . وتمام العمـــرة ان يُطاف بالبيت ، ويسعى بين الصفا والمروة ، والحـج لا يكون إلا مـــع الوقوف بعرفة يوم عرفة واجراء بقية المناسك[4] .

وتقبيل الأحجار والأصنام واستلامها في أثناء الطواف أو في غير الطواف من الشعائر الدينية عند الجاهليين. كان في روعهم ان هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة، ويوصلهم اليها ، فتقربوا اليها ونصبوها في مواضع ظاهرة ، ومسحوا أجسامهم بها تبركاً . وكلمة (تمسّح) من الكلمات التي لها معاني عند الجاهليين ، وكذلك كلمة (استلم) و (استلام) عند أهل مكة خاصة حيث استعملت بالنسبة للحجـــر الأسود . وطريقتهم ان يمر الانسان يده على الحجر المقدس أو ان يمسه بها إن صعب استلامه كله . وقد يعوض عن ذلك بعصا يمدها الانسان الى الحجـــر حتى

---

١ البقرة ، الآية ١٥٨ .

٢ تفسير الطبري (٢/١٢٠ وما بعدها) .

٣ « وقد كان حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا ، وقالوا : عمار فلا بأس علينا منهم » ، تفسير الطبري (٢/٢٠٢) .

٤ اللسان (٦/٢٨٢) ، تاج العروس (٣/٤٢٢ وما بعدها) ، اللسان (٤/٦٠٤) ، (صادر) ، البلدان (٤/١٥٤) ، الاقناع (١/٣٣٤ ، ٣٩٧ وما بعدها) .

تلمسه ، وإذا تعذر الوصول اليه بسبب ما ، فيجوز أن يفعل ذلك راكباً على جمل [1] .

ومن هذا القبيل أيضاً طرق مطارق أبواب البيوت المقدسة طرقات خفيفة ، وامرار بعض الأشياء مثل الملابس على الأصنام والصخور والمواضع المقدسة لاكتساب البركة ، والتمسح بجدران البيت أو استلام أركانه أو التعلق بأطراف الكسوة . وتلطيخ الأحجار بدماء الضحية التي تقدم للأوثان وذلك بصب الدماء عليها ، أو بتلطيخها وتلويثها كلها أو جزء منها بدم الضحية ، توكيداً بإراقة دم الضحية في نفس من ضحيت الضحية من أجله [2] .

وقيل إن من شعائر الجاهليين في الحج أن الرجل منهم كان إذا أحرم ، تقلد قلادة من شعر ، فلا يتعرض له أحد . فإذا حجّ وقضى حجّه ، تقلد قلادة من (إذْخِر) ، والإذخر نبات زكي الرائحة ، وأن الرجل منهم يقلد بعيره أو نفسه قلادة من لحاء شجر الحرم ، فلا يخاف من أحد ، ولا يتعرض له أحد بسوء [3] . وتذكرنا هذه العادة بما يلبسه بعض الحجاج عند اتمامهم حجّهم وعودتهم الى بلادهم من لباس (كوفية) خاصة بأهل مكة ومن عقال حجازي وذلك بالنسبة للرجال ، وخمار أبيض بالنسبة للنساء ، وذلك طيلة الأيام السبعة الأولى من احتفالهم بالعودة من الحج .

ولم يكن الجاهليون القريبون من مكة أو البعيدون عنها يقصدونها في حج (عرفة) وعمرة (رجب) حسب ، بل كانوا يقصدونها في أوقات مختلفة وفي المناسبات ، للطواف حول الأصنام ، واستلام الحجر الأسود ، والتقرب الى الآلهة المحلية . وقد ساعد ذكاء سادة قريش الذي تجلى في جمعهم أكثر ما أمكنهم جمعه من أصنام القبائل في (البيت الحرام) ، على اجتذاب القبائل اليها ، وبذلك نشطوا في استغلال مواسم الحج والعمرة بالاستفادة من القادمين بالاتجار معهم ، وبيع ما

---

١ وفي الحديث أن الرسول طاف وسعى بين الصفا والمروة ، وهو على ظهر جمل ، البخاري (١/٦٦ ، ٢١١) ، السنن (٢/٣٧ ، ٣٩) ، مسلم (١/٤٨٦ ، ٤٨٨)، الاغاني (١٣/١٦٦) ، المشرق ، السنة السابعة والثلاثون ، كانون الثاني — اذار ١٩٣٩ م (ص ٨٧ وما بعدها) .

٢ Reste, S. 109.

٣ بلوغ الارب (٢/٢٨٩) .

يحتاجون اليه من طعام وزاد ، فحصلوا على مال ، حسدهم عليه الآخرون . فكان الفضل في ذلك للبيت . والى ذلك أشير في القرآن ، في سورة (قريش) : « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »[1] .

هذا ما عرفناه عن شعائر الحج الى مكة وعن مناسكه في الجاهلية المتصلة بالاسلام . أما عن الحج الى البيوت الأخرى وعن شعائره ومناسكه ، فلا نكاد نعرف من أمرهما شيئاً يذكر . ولكننا نستطيع ان نقول إن من أهم أركان الحج عند جميع الجاهليين ، وجوب مراعاة النظافة ، نظافة الجسم ونظافة الثياب . ولذلك ، كانوا اذا حجّوا لبسوا ملابس خاصة بالحج هي (الاحرام) أو ملابس جديدة ، أو ملابس مستعملة نظيفة مغسولة،وذلك لحرمة هذه المواضع وقدسيتها ، فلا يجوز دخولها بملابس وسخة دنسة ، واذا كانوا يلبسون أحسن ما عندهم عند ذهابهم الى مقابلة عظيم أو سيد قبيلة أو رجل محترم ، احتراماً له واجلالاً لشأنه، أفلا يجب اذن لبس خير ما عند الانسان من ثياب لدخول بيوت الآلهة ، ولا سيما في مواسم الحج ؟. وكان منهم من يوجب على نفسه الغسل وتنظيف جسده حين دخوله المعبد أو اعتزامه الحج .

وتقبيل الأصنام والأحجار واستلامها في أثناء الطواف ، والتمسح لها،من الشعائر الدينية اللازمة في الحج وفي غير مواسم الحج عند الزيارات . كان في روعهم ان هذا التقبيل مما يقربهم الى الآلهة ، ويوصلهم اليها، فتجعلها ترضى عنهم وتشفيهم مما هم فيه من سقم وأمراض ، فتقربوا اليها ومسحوا أجسامهم بها تبركاً وتقرباً. و (التمسح) بالصنم أو الحجر المقدس ، التبرك به لفضله وعبادته ، كأنه يتقرب الى الآلهة بالدنو منه ولمسه[2] . وقد كان رجال الدين يمسحون بأيديهم أجسام المرضى وثيابهم ، لازالة السوء عنهم . وقد ذكر أهل الأخبار ان الجاهليين كانوا يتمسحون بأصنامهم ، ويمسحون ظهورهم بها ، لاعتقادهم انها تشفيهم من كل ألم وسوء .

واستلام الصنم أو الحجر المقدس،هو نوع من أنواع التقدير والتعظيم والتقرب. ويراد بذلك تقبيل الحجر ولمسه وتناوله باليد ومسحه بالكف . واذا صعب الوصول

---

١ سورة قريش ، الرقم ١٠٦ ، رقم الآية ٣ وما بعدها ، تفسير الطبري (١٩٧/٣٠)، روح المعاني (٢٤١/٣٠) .

٢ تاج العروس (٢٢٦/٢) ، (مسح) .

اليه لشدة الازدحام ، فقد يمدّ أحدهم قصبة أو عوداً أو عصاً اليه لمسّه، فيكون لمس هذه الأشياء له ، كأنه لمس حقيقي ، يجلب لصاحبه ما تمناه وطلبه ورجاه من ذلك الصنم أو الحجر[1] .

وقد أشار بعض (الكلاسيكيين) الى وجود غابة من النخيل في ركن من البحر الأحمر ، كان يؤمّها النبط للتبرك بها ، إذ كانت في نظرهم أرضاً مقدسة، عليها معبد من الحجر عليه كتابة ، وصفوها بأنها كتابة لا يستطيع اليوناني قراءتها ، وبه كهّان وكاهنات يقضون عمرهم في خدمة ذلك المعبد. قالوا : وفي كل خمس سنين يحج الناس اليه ، ويتجمعون عنده ، ويحضر معهم من في جوار المعبد من ناس ، فيذبحون ، ويتقربون الى آلهتهم . فإذا عادوا أخذوا معهم ماءً من ذلك المكان ، للتبرك به ، لاعتقادهم أنه يمنحهم الصحة والعافية . وذكر بعض آخر أن الحج الى هذا البيت كان مرتين في السنة : الحج الأول في مطلع السنة ، ويستغرق شهراً واحداً . أما الحج الثاني فيكون في نهاية الصيف، ويستغرق شهرين. وتكون هذه الأشهر الثلاثة أشهراً حرماً لا يحل فيها قتال ، يعمّها سلم أوجبته الآلهة على الانسان والحيوان[2] .

ونرى في هذه الشعائر مشابهة كبيرة لشعائر الحج في مكة . ولولا تعيين هؤلاء الكتبة المكان ، ونصهم على أنه على البحر الأحمر ، وانه غابة نخيل ، لانصرف الذهن الى مكة ، إذ نجد أن شعائر الحج فيها تشبه هذه الشعائر ، واستقاؤهم من ماء (زمزم) للتبرك به ، يشبه استقاء هؤلاء من بئر معبدهم هذا ، وقد أهمل أولئك الكتبة أسماء الأشهر الحرم الثلاثة ، فأضاعوا علينا فرصة ثمينة كانت تساعدنا كثيراً في الوقوف على تثبيت الأشهر عند الجاهليين .

ويلاحظ أن النبط كانوا يعقدون في أثناء هذه الأشهر الحرم سوقاً ، تذكرنا بسوق عكاظ التي كان يعقدها أهل الحجاز . ولا شك أن موسم الحج في المعبد المذكور ، الذي يتحول الى سوق للبيع والشراء ، يشبه موسم الحج في مكة حيث ينقلب أيضاً الى سوق .

---

١ اللسان (١٢/٢٩٧) ، (سلم) .

٢ Die Araber in der Alten Welt, I, S. 32. f.

الأعياد :

والأعياد من جملة مظاهر الأديان وشعائرها . والحج في حد ذاته عيد من أعياد الجاهليين . وقد كانت للجاهليين أعياد لها صلة بأديانهم ، غير اننا لا نستطيع ان نتحدث بالطبع عن وجود أعياد عامة يعيّد فيها جميع الجاهليين عبدة الأصنام ، لأن الأعياد العامة تستدعي وجود ديانة واحدة وعبادة إلـه أو آلهة مشتركة يعبدها جميع القوم ، واذ كانت العرب لا تعبد إلهاً واحداً أو آلهة مشتركة يقدسها أهل الوبر وأهل المدر منهم جميعاً ، فلا يمكن ان نتصور وجود أعياد عامة لجميع العرب ، في عهود ما قبل الاسلام .

ولفظة العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد على رأي علماء اللغة [1] . وهو بالمعنى المعروف الذي يخص الاحتفالات الدينية من الألفاظ المعربة المأخوذة عن لغة بني إرم على رأي المستشرقين . فـ (عيدا) في الإرمية هي (العيد) في العربية [2] .

---

١ تاج العروس (٢/٤٣٨) ، اللسان (٤/٣١٣) ، بلوغ الارب (١/٣٤٤) .
٢ Ency., II, p. 444.